

تجاعيد ذاكرة البنجوس ..

الجزء الثالث

ثلاثية لا وطن في الحنين

”ذاكرة الحب والمنفى في زمن الجنكويز“

تجاعيد ذاكرة البنجوس

أحمد ضحية
ثلاثية لا وطن في الحنين - ج1

ISBN 9789776597227

© Willows House 2021

الطبعة الأولى: 2021 منشورات ويلوز - جوبا

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائل نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين أو الاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر



جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جيران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
willowshouse3@gmail.com
+211927302302

أحمد ضحية

تجاعيد

ذاكرة البنجوس

ثلاثية لا وطن في الحنين

Willows House
منشورات
ويلوز هاوس



إهداء

إلى أمي وأبي.

”إذا لم تقا، أأني سرك وخذ كنفوسي،

فأنت لسأ برآل“

الميرم آآآ، أأأ السلطان علي دينار

من فرط التفكير بالخلود، تركنا الغسق يطبق دون أن نشعل
المصباح. ولم يعد باستطاعتنا أن نرى وجوه بعضنا.

خورخي لويس بورخيس

حوار على الحوار

القسم الأول

رهد الخيل

على الخريطة المفرودة أمامه، وضع عادل دائرة بالقلم الأحمر، عند منحني أحد الوديان، وهو ينقل بصره إلى عبده الخال قائلاً: ”هنا، يقع (رهد الخيل) حيث وجد ذلك الفلاح والد (أومي زكريا)، عند قيْف الوادي!“

تنهد عبده الخال بعمق وهو يضيف:

نعم، نعم أذكر الحكاية، فد (أومي زكريا) من سلالة عجيبة، فوالده شاو بنقا شرورو شطة، وجد ذات صباح نديان، في الناحية الشرقية من وادي الفاشر. كان لحظتها مولوداً للتو، كما بدى لذلك الفلاح الذي تصادف مرورهِ، في الطريق من (مُرْدَف) إلى (مُتْرُ). ملح على الناحية الشرقية، من الوادي المبلبل بالندي، في ذلك الصباح الهاديء، حركة ما.. اقترب.. دنا أكثر وهو يشدد قبضته على (سفروكه) الأملس، فتبين طفل حديث الولادة على صدر امرأة ميتة، تآكل جانبها الأيسر كله، ولم يتبق منه سوى العظام، و جانبها الأيسر كله أخضر!

كانت بالكنفوس الأبيض، الذي يستر عورتها، كأنها ماتت للتو واللحظة.. لا بل كأنها لم تمت، فالطفل كان لا يزال يرضع، من ثديها الأيمن الممتليء باللبن!.. كانت كأنها تستلقي في دعة وحبور!

ألجمت الدهشة ذلك الفلاح الذي اكتشفها، والذي ما أن تمالك نفسه، حتى ركض مذعوراً باتجاه البلدة، التي عندما وصلها، لم يستطع أن يتكلم سوى بالإشارات، ثم سقط مفارقاً الحياة!

وعندما وصل الناس، ليكشفوا عن سر ما حدث، فوجئوا بسبعة جبال لم تكن موجودة، انتصبت حول ذلك المكان. أحدها أبيض. انعقد

فوقه برق كمجال مغناطيسي يتموج، يلمع وينطفئ، وتحت الجبل في الرقعة المنبسطة أسفله تماماً، ترعى سبعة خيول، كلها بلون الجبل! وفوجئوا أكثر بذلك الطفل المبتسم، وأمه ذات الجسد نصف الميتم، وقبل أن يلوذوا بالفرار، كانت العجوز كلتوم، قد بذلت مجهوداً خرافياً، في تهدئة خواطهم المشتعلة، وهي تخيفهم من مغبة الهروب، وعواقب الفرار، من وجه اللعنة دون مواجهتها:

”ستلاحق أبنائكم وأحفادكم جميعاً“

فتمالكوا أنفسهم، عندما تقدمت العجوز كلتوم، تقطع الجبل السُّري، الذي كان قد جف تماماً، ودفنوا بعد ذلك تلك المرأة، و تواطأوا بالصمت.

فلم يعد أحد منهم يشير، إلى تلك الحادثة أبداً. ومنذ ذلك اليوم، الذي أخذوا فيه الطفل، أصبحت أوضاع الوادي تتحسن. بدى أكثر خصباً وأنعامه في ازدياد مستمر، وأرضه أكثر خصوبة، وأشجاره أكثر خُصرة. نبتت الأشجار المثمرة، وانتشر النخيل، الذي لا قبل لهم به، وأصبح القمبيل والقنا أكثر شهوقاً، بل وكثيرون منهم، أصبحوا يجدون الذهب في لب القنا، وذلك الفلاح الذي مات رعباً، نبتت في قبره (جقجقة) ليست كمثلهما جقجقة، حتى في أعلى الجبل عند الجنانين، التي تسقى من شلالات مارتجلو وساروا وقلول.

كان الشرتاي بنقا شرورو شطة، قد أبقى على الإسم الذي أطلقته العجوز كلتوم، على الطفل (أومي زكريا شاو) وأعطاه إسمه، وهكذا ظهرت للوجود سلالة (شاو شرور شطة).

وما أن بلغ الطفل العاشرة من عمره، حتى بدى واضحاً، أنه يختلف عن أقرانه كثيراً. كان مميزاً عن كل الناس، يستطيع غيباً، معرفة الغرض الذي يأتي فيه أي شخص للشرتاي، دون أن يفتح هذا

الشخص فمه ببنت شفة!

وكان صائب الرأي فيما يشير به، إلى أن جعله الشرتاي، ساعده الأيمن وزوجه من (كيرا كوي) التي كان يرغب بها (الفقير) محمد البلاوي.

والتي أنجبت له أومي زكريا. وقبل أن يفارق الحياة بأيام، كان قد اشترك مع إياباسي زمزم، في حربها الضروس ضد الخونة!
هذه الحرب التي اختفى على أثرها الشرتاي شرورو شطة، ولم يعرف له بعدها أثر!

قبل أن يموت شاو بأيام، كان قد نادى إبنه الوحيد، الذي بقي على قيد الحياة، أومي زكريا:

”اللعنة التي أودت بأمي ستعيش في هذا الدّم، ولن يتخلص منها سوى الدّم نفسه!“

”كيف أبا؟!“

”أحد الأحفاد يجيء من هذا الدم!“

روايات أخرى تناقلها شعب الوادي، عن شاو بأنه لم يمّت، وأنه لا توجد هناك لعنة ولا يحزنون، وكل ما في الأمر أنه اختفى احتفاءً غامضاً، مثل شطة شرورو، ولم يبن له أثر!

ساد بينهما صمت عميق، بدى خلاله حفيف أوراق الشجر، كخربشة
 قطة متوحشة، تسلخ لحاء الأشجار. وبدى فيه خريز الجدول، كنعيق
 مدوي لطائر البوم! استلقى البنجوس على بساط العشب الحائل
 اللون، واتكأت كيرا على ضلعه الأيسر.

تنهدت في عذوبة وهي تحلم به:

”آه يا شقيق دمي“

غردت طيور الدغل لحظتها، في صوت موحد، فهم بها:

”آه يا شقيقة دمي..“

كان (البنجوس) يدرك فداحة جرحه، ويطيفها يخرج من جسده،
 ويتلاشى في فضاء المكان..

أنهد صوت البنجوس، وران الصمت على الغرفة الغارقة في
 الذكريات.. المشدوهة في الصمت والصدى والحنين.

انسحبت (راوية) من تجاعيد ذاكرته وتغضناتها المدهشة، تنضو
 تلافيها.. تختلس أفكاره وتسترق أحاسيسه، ومشاعره الخبيثة الدافئة.
 رغم مرور السنوات الطوال، منذ آخر مرة رآها.

كانت الغيوم تتلبد، و(البرق العبادي) يشيل ويخت في الأفق،
 عندما رأى البنجوس نفسه، ممتطياً جواداً كميثاً. توغل في صهيل
 الكميث، وتوغله الصهيل، والكميث يشق بجسده الأملس، لجة
 البحيرة الوردية، ويغيب في أعماقها. يحاصره صوت عميق كالدوامة:

”ساو.. صولنج.. صولنج..“

يشعر بالغرق في الماء والصوت، فيصحو مذعوراً.. وجد نفسه مبللاً. عصر ثيابه وتذوق البلل، لم يكن عرقاً كما توهم، كان ماء حقيقياً! ماء له طعم (المريسة).. أحس لحظتها، أن رحلته الحقيقية ستبدأ عند البحيرة، وظل بانتظار تلك اللحظة لسنوات طوال. تنهد البنجوس تحت شجرة (الجهنمية) العجوز، وهو يسترد ذاكرته المهوّمة، في غياهب ماضٍ بعيد، وأخذ يختلس النظر، والسمع لعادل وسلمى، أصدقاء عبده ابن زوجته حليمة.

كانا قد انتحيا تحت شجرة التّيم الهرّمة.. مكانهما المعهود، منذ أصبحا يلتقيان عند عبده الخال.. شجرة النيم اليتيمة الهرّمة، شهدت بواكير نظراتهما، وابتساماتهما المتبادلة، ولقاءاتهما الحميمة..

على مسافة من البنجوس السبعيني العجوز، الذي يجلس كالمعتاد تحت شجرة الجهنمية، التي أطلق عليها عبده الخال نكاية فيه إسم (شجرة المحنّة والإمتحان).. يسترقان السمع باهتمام لمشاغلاته للمارّة، من سكان الحي، مقحماً أنفه فيما لا يعنيه، لتصبح مسائلهم هي أنفه ذاته!

فعندما يسمع البنجوس، صوت سيارة جاره عبود، في الصباح الباكر، يخرج إليه:

“صباحاتك بُيض؛ ما تسوق العربية كان ما جاهزة”

وعندما يكون في طريقه إلى المولد النبوي، يوقف تلك الفتاة وهذا الرجل، وهذه الأم، التي تمضي مع أطفالها:

“عاوزة تشتري قدر شنو يا بتي؟! ”

وإمد يده بعد حوارٍ حميم، بمبلغ من المال لأحد أطفالها، الذي يقف ممزقاً، بين نظرات أمه ويد البنجوس الممدودة.

وفي الحي يسأل الموظفين، لحظة خروجهم من العمل وعودتهم:

”والله زمان! فوضى! شغالين على كيفكم“

قالت لمياء لزوجها عبده الخال، وأمه حليلة:

”شوفو لينا حل مع أبوكم دة؛ فضحنا في الحي“

كان عبده الخال الذي نشأ لديه الاعتقاد، أن أبيه الذي تبناه (البنجوس)، أوتي حكمة ما.. وأن الأمر ليس مزعجاً كما تتصور لمياء!

كان البنجوس يعني بالأطفال، أولاد الجيران، المشردين، يشتري لهم الآيس كريم والبسكويت. ما جعله محبوباً لكل الناس..

البنجوس لا يزال يختلس النظرات والسمع، إلى سلمي وعادل، اللذان لا يزالان واقفين، تحت شجرة النيم كلما احتدا في النقاش.

تقاعد البنجوس، بعد سنوات خدمة عسكرية طويلة، جاب خلالها كل أنحاء البلاد: شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً. رأى الدنيا ودخلها بطولها وعرضها!..

عاشها ولم يجد نفسه متفرجاً على الحياة يوماً. ليس ثمة أمنيات لم يحققها، أو مغامرات لم يخضها، مشروعه كإنسان، لم يبق منه شيء لم ينجزه، ومع ذلك ثمة قلق خفي غامض، لا يفتأ ينتابه الآن، في تقاعده المهيب!

يشعر بالصفح والسلام، وربما تقلقه تلك الذكرى البعيدة، بحنينها العميق لكيرا لنقي، وهي تنهي تديكها لجسمه الفارع مرةً أخرى، بعد كر وفر.. وبعد أن اغتسلا في البحيرة الصغيرة، التي تشبه رهد الخيل، والتي توسطت الردهة الواسعة في الجبال، قالت:

”سأنتظرك وإن طال الحنين“

فرد بصوت متصالح لكن متهدج:

”سأتي وإن طال الحنين“

وامتطيا الفرس الأبيض. شق بهما عباب البحيرة ليفترقا، على
مشارف معسكر الجيش.

منذها لم يستطع أن يقرب أنثى قط. حتى زوجته حليلة أم عبده،
أصبح يشعر تجاهها بالذنب! كانت (دارفونقرو) قد انتسجت في
شرايينه، فلم يجد سوى الشعور بالحزن، كلما تذكر عذابات حليلة،
فيكي حرمانه لها حقها، في الحنين والدفء والارتعاش.

الآن في تقاعده المهيب، يشعر بالحميمية والتصالح والصفح
والغفران و.. والحنين العاصف لكيرا لنقي. يشعر بها قريبة منه أكثر
من أي وقت مضى.

ثمة شعور خفي بأن موعد لقائهما قد حان، بعد سنوات طويلة
من الحنين والوجد الممضين، منذ ذلك اللقاء الأول والأخير.

أطال النظر إلى شجرة الجهنمية العجوز، كأنه يودعها. كأنه
يراه للمرة الأخيرة، ودخل إلى غرفة عبده الخال، الذي كان يجتمع
بأصدقائه.

قبل أن يولد البنجوس كانت الدنيا (أم كواكية) قطاع الطرق
الجنجويد، يقتلون الناس وينهبون ممتلكاتهم.. يحرقون الزروع
ويخربون الديار. أصبح كل ذلك، بميلاد البنجوس، كأنه لم يكن يوما.
عم السلام الناس وشملتهم سكينه، لا يعرفون لها سببا واضحا.
لكن ظل قطاع الطرق يتحينون الفرص، إلى أن استجمعوا شجاعتهم
ذات ليل أليل، لكنهم سرعان ما ارتدوا على أعقابهم، دون أن يدركوا
كيف حدث ذلك!؟

منذها أخذوا يكررون، محاولاتهم الفاشلة دون جدوى. عندما
يتبدى البدر منيراً صافياً. يتجمع أهالي البلدة؛ يتحلقون في دائرة،
داخلها الفتيات والفتيان..

يرقصون على إيقاع النقارة، ويغنون شجر القنا والأبقار والقمميل وطيور الجنة الملونة، والوادي وصندل الردوم. تتخلل أغنياهم ذاكرة البنجوس، تثوي فيها منظوية على كيرا البسطونة، والوادي الرملي والمروج الخضراء، وأدغال القنا، وورد البرية السام.. فتنطوي على ربابة البنجوس، ألف نغمة ونغمة، تسري كتيار صاعق، يحرق الشجر!

من هذا المرتفع الذي يرى من مسافات بعيدة، يطل مباشرة على المدينة المقدسة، محاذاة جبل (نامي). ترى أطلال المعابد المتفرقة في سفح الجبل؛ ومنحنياته. ترى القصور المنحوتة في أعماقه، و تلك الكهوف، التي نقشت عليها قصة شعب الوادي، بالرموز والإشارات والرسوم، التي تتبدى عن خصي الكبش والخيل والأشجار.

من حواضر الوادي القديمة، شبه الخالية زحف شعب الوادي بكهنته، إلى أعماق جبل (نومي) يدفعه حزن شفيف على دالي، الذي رحل مبكرا دون إنذار.

في ذلك اليوم الذي رحل فيه دالي، ليلحق بالأسلاف في النوبة.

مضى بعيدا، بعيدا حتى غاب في إيقاع الطبول، وأنغام ربابة البنجوس المنسية، التي لطالما عزفته أوتارها، ليجد نفسه متكئا على صدر الكيرا المتحفز.. تدلك جسده العاري، المتمدد كجبل (اب كردوس) وتجذبه، فينهض أمام الجبل السامق في العرى، كأنه يحتوي الكون كله، ويدلفان إلى قلب الجبل، حيث ينتظره المزارعين الثوار، مصطفين في صفوف دقيقة، يحيونه ويهتفون بالجلالات العسكرية.

في تلك الليلة بعد أن حمل الفتيان (نقاراتهم) وتفرقت جموع الأهالي، ومضى الجميع إلى مخادعهم. وعلى مشارف الفجر، هجم قطاع الطرق الجنكوز، أحرقوا البلدة ونهبوا الأبقار، ولم يتركوا شيئا!

كانوا قد داهموا البلدة على حين غرة، وما أن أفاق الأهالي من

هول المفاجأة، حتى أخذوا يتساءلون عن هذا الحدث. الذي بدى غامضا وغير مفهوم، فلأول مرة منذ وقت طويل، يحدث مثل الذي حدث. في مساء اليوم التالي، جاء البنجوس و (كيرالنقي) التي كانت الدماء تغطي جسمها النحيل.

وكان البنجوس مبتلا بالدموع، ومصابا بهاء السكت. وبعد أيام تمكننا من الكلام، فحكيا حكاية لم يصدقها احد: حكى البنجوس عن انتهاك الجنكويز لكيرا وتعاقبهم عليها، دون أن يأبهوا لدموعها وآلامها، وحكت كيرا عن كيف ضربوا البنجوس بأغصان الشجر الشوكي، ورفع البنجوس عراقي الدمورية ليريهم آثار الضرب على ظهره، ورأت النساء تمزق ظهر كيرا وأحشائها، ولاذت الميرم كلتوم بصمت غامض، لم يستطع أحد انتزاعها منه!

بعد يومين اختفت كيرا بصورة غامضة وأصيب البنجوس بالصمت المقيم. فلم ينجح أحد في دفعه للكلام.

سأل أومي زكريا الفكي أبكر:

”هل صدقت هذه الحكايات التي حكيها؟!“

”ليس تماما!“

”ماذا تعني؟!“

”لو لم يكسر البنجوس كيرا، لما تمكن الجنجويد من كسرها. لقد ارتكبت الخطيئة فحلت اللعنة!“

وضع أومي زكريا يديه على رأسه ومات واقفا!

إن تحت (كيرا) ركنا قصيا من البهو، وأخذت تبحث عن شيء ما، وجدته: سيف صقيل وخوذة رومانية، ودرع سبارطي قديم، كأنه سك البارحة، ألبست الدرع للبنجوس الكومندان، ومنطقته بالسار(السيف)، بعد أن وضعت على رأسه واق. وصفرت..

فجاء جواد يخب من غياهب الجبل. سحبت الجرايد (دروع الساق) من سرج الجواد الكमित، الذي انطلق ينهب الأرض نهبا!.. بعد عدد من الأبنية المتداخلة، التي يفضي كل منها إلى آخر، توقفا عند مدخل بهو حائل اللون.. دخلا. كان بهوا واسعا مفروشا بسجاجيد تركية صغيرة، يتوسطه ككر خال في اليسار، وخلفه حرس من الفتيات الناهدات، العاريات إلا من الكنافيس القطنية البيضاء، والطواقي المزخرفة، بخيوط من النحاس المنقوش، وريشة سوداء من ريش النعام، وترسا من جلد فرس النهر، في الذراع المقابل، أجلسته على الككر. وأخذت تتمتم بعبارات مبهمة..

البنجوس الصغير أو (عبده الخال) على الرغم من أن تاريخه الشخصي؛ اعترته كثير من التحولات، خاصة بعد أن هجر والده بالتبني: البنجوس الكومندان، ولد أومي زكريا في تلك البلدة الصحراوية البعيدة، عند أقصى أفق دار الريح، ومنذ وقت مبكر من سيرة النزوح، وأعمال الجنجويد القدامى قبل الحرب الأهلية الأولى، استقر في بلدة أخرى، لا يفصلها عن النهر سوى فرسخ أو فرسخين..

هذا النزوح من المكان، ترتب عليه نزوحا وانزياحا، في الذاكرة الشخصية لـ عبده الخال، أو البنجوس الصغير، فأصبح من الصعب التمييز بين سيرته، التي لا تنتمي لتلك البلدة الصحراوية، وسيرته

التي تنتمي للبنجوس، القادم من أقصى دار الريح.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، إذ انزاح اسم البنجوس أومي زكريا، على عبده الخال، وهكذا حدث التباس عظيم، لم يستطع أحد فك اشتباكاتة، حتى أن الكثيرين اعتقدوا: أن عبده الخال كان اسمه ذات يوم، في بلدته البعيدة تلك (البنجوس!).

لم يعد تاريخ البنجوس (الحقيقي) الكومندان ولد أومي زكريا، الذي تبنى عبده الخال، في واحدة من مأمورياته صعيد النهر الأزرق، هو ذات ذلك التاريخ المليء بالرؤى والأحلام، فالبلدة النهريّة أخذت منه تلك الرؤى، وأعطته بدلاً عنها حياة أخرى، مليئة بالتجاعيد والتعرجات، والازدواج. ما وسم وجدانه بأغنيات شجية!

ومع ذلك ظل ذات ذلك الشئ الغريب، الذي وسم حياته، عندما كان في بلدته الصحراوية البعيدة تلك.. ذلك الشئ الغامض! الذي كلل سحنته، بنوع من المهابة نادرة الوجود، هو أول ما تلاحظه، عند الجلوس إليه!

كان البنجوس أومي زكريا منذ ميلاده، يشعر بغربة بديعة، تحاول انتزاعه إليها، ولذلك عندما أدركه الوعي، أخذ يجنح بخياله مرتادا آفاقا بعيدة، يرى فيها وجوها مختلفة، لأناس مختلفين في أماكن مختلفة.

ولم يكن هذا الحلم هو حلمه وحده، فقد كان هو الحلم الخفي للميرم كلتوم أيضا!

فقد تركت الميرم سليلة السلاطين والملوك، حاضرة المملكة، وجاءت لتعيش في بلدة أخوالها، منسحبة من عالم الكر والفر، الذي ألفته! والسلطة والسُلطان اللذين لطالما مارستهما، وهكذا فجأة قررت أن مكانها (ليس هنا!) لكنها لم تدرك أبداً أين يكون مكانها!

وهكذا انسحبت إلى هذه البلدة الصحراوية، ريثما ترتب أفكارها،
فتطلق لتحقيق أحلامها الغامضة العنان!

كانت عروق وجه البنجوس (عبده الخال) قد بدأت تنقبض، وأعضابه
تتوتر. عندما خرج صوت الطبيبة النفسية هادئاً.. عميقاً ومؤثراً:

“أستاذ عبده استرخ.. أهدأ..”

ثم نهضت منهية جلستها..

”لكن لا يزال لدي ما أقوله!“

”لا، يكفي حديث لهذا اليوم“

ردت عليه بحزم، وهي تعاود الجلوس إلى مكتبها، بعد أن أوقفت
جهاز التسجيل، وشغلت موسيقى هادئة، ثم ضغطت على زر أمام
مكتبها، فدخلت الممرضة الشابة مدام روز، بثيابها البيضاء الأنيقة،
التي تحمل أعلا الجانب الأيسر من صدرها شعار: ”مركز النديم
للعلاج النفسي“.

عادت مدام روز بعد قليل، تحمل كأساً من عصير الليمون البارد،
وضعته أمامه، فنهض من جلسته المسترخية.

كانت طبيبته دكتورة داليا، التي تعدت منتصف العقد الرابع
بقليل، تنظر إليه في هدوء، وكأنها تتابع رشقاته البطيئة، وتفكر
في هذا التأثير الغامض، الذي ينبعث من سحنته.. عندما رنَّ جرس
هاتفها الجوال، على نحو مباغت، انتفض له البنجوس كاملدوغ،
فتناثر شيء من رذاذ الليمون على ثيابه، التي بدى من الواضح، أنه لم
يكويها منذ وقت طويل.

وضع كوب العصير بتعثر على المكتب، واستأذن في الانصراف! فلم
تحاول الطبيبة إبقاؤه، إذ أومات برأسها بينما أضاف:

”مواعيدنا الأسبوع المقبل إذن؟“

”نعم.. ولا تتأخر كالعادة“

وقبل أن يخرج البنجوس، من الصالة المفضية إلى مكتب الطبيبة، بصحبة صديقيه حسن وعادل.. اللذان كانا ينتظرانه في الاستقبال، جاء صوت دكتورة داليا من خلفهم:

”هل تسمح لي ببعض اللحظات يا أستاذ عادل؟“

تبادل عادل والبنجوس وحسن النظرات بينهم!..

”جدا يا دكتورة“

”سننتظرك نحن في المقهى المجاور لمحل النت“

قالا بصوت واحد سألت الطبيبة عادل:

”هل هناك شيء لا أعرفه؟ نسيت أن تقوله لي؟!“

”كل ما أعرفه عن عبده الخال ذكرته لك؛ فنحن أصدقاء منذ الطفولة.. أكثر ما كان يميزه هو نهمه في قراءة كتب التاريخ، وشغفه بحكايا والده بالتبني الكومندان بنجوس، ويبدو أن لهذه الحكايات والقراءات التاريخية، علاقة بهذه الحالة التي يعانيها؛ خاصة أنه انغمس في السياسة، ككل أبناء جيله، كذلك حصل على تعليم ديني تقليدي، في زاوية الطريقة التجانية.“

وهذا النوع من التعليم تترتب عليه علاقة بالأساطير والرؤى والتجليات، الخ.. من أمور أسطورية، لا تصدق! وربما لذلك يتصور نفسه متنقلا في الزمان والمكان، كلما نام. فعندما يصحو يجد نفسه في مكان وزمان مختلفين عن المكان والزمان قبل أن ينام.. ربما هذه الحالة بمثابة نوع من أحلام اليقظة، أو التقمص لحياة الكومندان البنجوس المدهشة!“

”كيف يكون الأمر كذلك وهو من كل مكان يرتاده يحضر معه شيئاً يدلل ويثبت أنه فعلاً كان في هذا المكان أو ذاك؟!“

”لا أدري. فكل ما أعلمه هو ما شرحت لي أنت سابقاً: أن هناك ثلاث عناصر أساسية، شكلت حياة عبده الخال: شعوره بالاضطهاد الاجتماعي والعاطفي والفكري، كابن متبنى ربما..“

هذه العناصر شكّلت ضغطاً عاطفياً وعصبياً حاداً، عبر عن نفسه فيما يشبه تداخل الأزمنة والأمكنة، في عقل الخال، وهو ما أسميته أنت قبل الآن بـ: أحلام يقظة!

وهي حالة عقلية بالدرجة الأولى. أو أننا أمام ظاهرة، تقف معارفنا المحدودة عاجزة أمامها!. كان هذا رأيي وقد أشركت فيه، حتى أتمكن بمساعدتك من إضاءة بعض المناطق، التي يمكن من خلالها تحديد طبيعة هذه الظاهرة التي يعانها صديقك، من وجهة نظر التحليل النفسي، هناك علاقة صراعية دائمة بين الإنسان ومحيطه: رغباته، غرائزه متطلبات ومحرمات العالم المحيط به.. فما نسميه أحلام يقظة هو: الأفكار اللاواعية لعبده الخال، في محاولة شق طريقها إلى وعيه، لكنها عنده، ليست كما اعتدت خلال سنوات عملي الطويل كطبيبة نفسية، فأحلام الخال من الأعمال الفنية المعقدة، والمذهلة في آن، ويقتضي فك رموزها، تضافر جهودنا والكثير، الكثير من الجلسات.. تذكرت: هل سبق لعبده الخال أن اعتقل؟“

”لماذا؟“

”لأن الآثار النفسية التي يتركها الاعتقال، في الإنسان الذي عانى الاعتقال، تبدو واضحة على نفسيته، وفي ذات الوقت هو يؤكد أنه لم يسبق له أن اعتقل! وهذا يبدو لي غريباً بعض الشيء!“

”حقاً لم يعتقل، ولكنه عانى مثل كثيرين، من بعض المضايقات

والضغوطات، بسبب قضية (المخطوطة السرية) التي ذكرتها لك سابقا، فهرب.. مثلنا جميعا“ ”لكن في تقرير منظمة (ضحايا التعذيب) الذي تم بموجبه تحويل ملفه إلى، هناك تأكيد لأكثر من مرة أنه تعرض للاعتقال والتعذيب.. آه هناك سؤال كنت أرغب في إجابة واضحة حوله: ما هي علاقة المخطوطة السرية بكتاب دالي؟“

”في واقع الأمر يا دكتور أنا أتحدث على قدر معرفتي به، وبناء على ذلك أؤكد أنه لم يتعرض للاعتقال أو التعذيب وإن تعرض للترويع، الأمر الذي دفعه للهرب واللجوء إلى هنا. كما أن كتاب دالي (في تقديري الشخصي) كتاب وهمي أو أسطوري لا وجود له ككتاب لكنه، موجود كقوانين تم تناقلها شفاهيا ومورست من خلالها السلطة، في لحظة من لحظات التاريخ الخاصة بدار الريح!“

”لأوضح لك الصورة أكثر: موظف ضحايا التعذيب، الذي أجرى الانترفيو معه، كان زميل له في المعتقل، وقد تعرف عليه بمجرد رؤيته، وأكد على ذلك في تقريره، بينما يصر عبده الخال نفسه، أنه لم يسبق له أن التقى هذا الموظف من قبل، وأنه كذلك لم يتم اعتقاله من قبل! أي تتفق روايته عن نفسه مع روايتك، وفي ذات الوقت أنا اتفق مع رواية موظف ضحايا التعذيب، التي لا استطيع تكذيبها.. كما أن ذلك الموظف ليست لديه مصلحة فيما أورده! خاصة أنه عاصر معتقلين كثر في (شالا) و(دبك) و(كوبر) بحكم اعتقاله المتكررة، ولا يمكن أن يخطئ في التعرف على أحد زملائه السابقين، لا أظن أن ما يرتبط بتجارب الاعتقال، يمكن أن ينسى بسهولة!“

”رما لأن بلادنا عبارة عن معتقل كبير!.. الاستنتاج الوحيد الذي يصلح لفض هذا الاشتباك، أن لعبده الخال حياتين متداخلتين في بعضهما البعض، أنت وعدد كبير آخر ممن يعرفونه على صلة بإحدى هاتين الحياتين، وموظف ضحايا التعذيب وآخرين على صلة بالحياة الأخرى!“

”إذن يعاني انقسامًا حادًا؟!“

”لا، لم أقل ذلك“

”رهما يكون نوعا جديدا من الأمراض النفسية أو العقلية!“

ابتسمت دكتورة داليا وهي تودع عادل، الذي مضى ليجد عبده الخال وحسن، ينتظرانه في (مقهى الصفوة) المطل على تقاطع الشيخ ريحان، مع محمد فريد في قلب عابدين. حيث اعتاد اللاجئين أن يلتقوا لينتظروا بعضهم ويتبادلون الأخبار، ويتحدثون عن الفساد، وتلاعب الموظفين المصريين بملفات اللاجئين، والحوادث المأساوية، التي تقع للفتيات المضطرات للعمل، والتحرش الجنسي والشعور بالقهر، في هذه البلاد الغريبة، وتجارة الأعضاء، و.. و..

كان الخال وحسن منهمكان في نقاش حاد، حول مجريات الاعتصام. ما أن وصلهما حتى تساءل عن سبب صراخهما. فردا بصوت واحد:

”واحدة من المعتصمات، أجهضت بسبب سوء الوضع، كما توفي أحد الأطفال وثلاثة من المعتصمين، بأمراض مباغثة نتيجة للجوع. كما أن السل ينتشر بسرعة بين المعتصمين. فللشهر الثالث ينتظرون أن تعالج مشاكلهم، دون أن تحرك الأمم المتحدة أو الحكومة المصرية، كدولة عبور، ساكنا!“

”أنها إحدى النتائج الكارثية، الأكثر بؤسا للنظم الجنكوية، فما بين ملايين اللاجئين والمهجرين داخليا. تتمزق كل الأحلام في الاستقرار“ قال عبده الخال عبارته الأخيرة، وأرخى رأسه على الكرسي القاسي للمقهى ..

ترك حسن وعادل يتداولان شأن اللاجئين، ورحل بذاكرته بعيدا.. رحل إلى ذلك الصباح البعيد، الذي يقع في أواخر خريف فاشل،

ومتقلب الحرارة و البرد والرياح والرطوبة. حيث جلس الكومندان،
على غير عادته، عند غدير جمده الغبار.

وكالجالس عند نبع خفي، على حافة الذاكرة، أخذ يراقب أقرانه،
وهم في طريقهم إلى (الخلوى).. كانوا يمرون به، كأنهم لا يشعرون
بوجوده، فيكتفي بهز رأسه، مؤكدا أنه لا يأبه لهم.

كان يراقب فيهم حيض نهايات الخريف، يلوث فضاءات البلدة
بالرياح والغبار. في اللحظة التي شعر فيها بظل مديد يلقى عليه،
فالتفت ليرى الميرم كلتوم، التي حيته على غير عادتها:

”آفي كومو بنجوس“

” آفيا كونقا ميرم“

رد عليها دهشا، وبصره ينتقل بين الأفق الشرقي، الذي تسلخت
عنه شمس الضحى قبل قليل، قبل أن تضي بسرعة غير مألوفة،
نحو الأفق الغربي حيث مركز الرياح فتغيب، ليبقى بينه وبين الميرم
صمت، كحد سيف يوشك أن يعبر شجن المكان، إلى الزمن الذي بدى،
كأنه يتسرب بين أعواد الذرة والدخن، ويتخلل النباتات المتسلقة.

في الشهور التي تسبق هذه اللحظة، كان البنجوس قد تدله بحب
(كيرا لنقي، الورتابة) منذ رآها وهي ترش حبوب الدخن في أرضها
الخصبة، التي أطلق عليها أهالي البلدة (حجب النور).

تبادل معها البنجوس؛ الذي كان يمر بمراحل مراهقته كلها، دفعة
واحدة الغزل، بعد أن شرب (البقو) من برمة (الشرتاي) الذي كان قد
احتضنها، عندما جاءت في أحد المساءات الباردة، وعرفت نفسها بأنها
كيرا ابنة عشة زوجة جلاي ود عربي، الذي غادر البلدة قبل سنوات
طويلة! وهكذا أصبحت في حمى الشرتاي بمثابة الابنة!

في زاوية الكوخ بقلب الحقل. كان مذاق البقو لذيذا، وعينا
كيرالنقي واسعتين كرهده الخيل، وشفتيها تبدتا ممتلئتين، تنضحان
بحمرة القمييل..

غنى لها ورقص. كان هائما في واد تحفه الرؤى والأحلام. فهتفت به كيرا:

”هاي بنجوس انت سكرت!“

”لا، أنا ما شربت كثير“

”لا؛ شربت كثير“

كان ذلك آخر ما يتذكره من حواره معها، إذ لم يعد يعي بعدها
شيئا! ولا يعرف عن بقية لقاءه الأول والأخير بها، إلا ما حكاه له
أقرانه فيما بعد. قالوا له:

”كنت مغمى عليك أو كالمغمى عليك؛ تحدثت بألسن عديدة، لم
يفقه منها أحد شيئا..“

حملك الشرتاي للفكي أبكر الذي (عزم) لك وبخرك بالشطة،
وسقاك من (المحاية) المخصصة، التي لا يكتبها إلا لأولاد الأكابر!
كان عرقك غزيرا ولونك شاحبا، وشعرك مشعنا كأنك رحلت و
جئت من سفر بعيد. ثم لم تفق إلا بعد يومين. قال الفكي ابكر أن
روحا تلبستك!“

”روحا شريرة؟“

”لا“

”روحا طيبة؟“

”لا“

”أ“

”قال أن روحا تلبستك!“

منذ ذلك اليوم أخذت كيرا لنقي تتجنبه، وكانت قصته قد ملأت
(الحللات) و(الفرقان) وشبه البلدات الغارقة في شجن أليم.

”لماذا لم تذهب إلى الخلو؟“

سألته الميرم كلتوم، ولم تكن لديه إجابة.. تحية الميرم وسؤالها
المباغت، جعلاه يتجرأ ويحكي لها ما رآه في منامه ليلة البارحة..
فتسلل صوته عميقا كجريان الماء في الوادي. يحكي عن وجده بكيرا:
”كان بيني وبينها منذ إفترقنا توصلات ومعاتبة، لم أخاطبها بهما،
لكنني كنت أشعر بأنها تحسهما.. تعي وتدرك ذلك..“

كانت الليلة باردة، مقمرة فيها رش مطر (القبلي)، فتوضأت
وخرجت مسلوبا، وليس ثمة غيري في شوارع البلدة ودروبها، فلما
وصلت رهد الخيل ونزلت فيه، تبنى لي عن كيرا لنقي.
رأيتها قد شممت أذيالها، واستعدت في نفسها أن تغرقني، فجذعت
وصحوت مذعورا..“

هزت الميرم كلتوم رأسها كأنها ترحل إلى عالم خروج الروح، و
صوتها الآتي من أغوار سحيقة، يلتئم بما بدى نزا أخيرا للبنجوس..
قالت:

”في ذات الليلة التي رأيت فيها انت ما رأيت. كنت أستيقظ
مذعورة. رأيت نفسي مسافرة إلى ديار ما وراء النهر، فأسرت وقيدوني
بسلاسل وأغلال الحديد، وحبسوني في قعر بئر لا نهاية لها. وكان فوق
البئر المجذبة، التي عمرت بحضوري قصر مشيد، وعليها أبراج عدة،
ف قيل لي: (لا جناح عليك إن صعدت القصر متجردة إذا أمسيت، أما
عند الصبح فلا بد من الهوى في غيابة الجب)..“

وكان في قعر البئر ظلمات بعضها فوق بعض! إذا أخرجت يدي لم أكد أرها، إلا إنني في آونة الليل ارتقي القصر، مشرفة على الفضاء ناظرة من كوة، فرمما تأتيني حمامة زاجلة، تخبرني بالحال فأخبرها بالمأل، وحيانا اسمع صوت "التساب" وتذروني ريح (الهبابي) الشرقية العنيفة، وتخطف نظري بروق (العبادي)، فاشتم رائحة الأراك، واسمع أنغاما حزينة تهددني في البعيد!

فبينا أنا في الصعود ليلا والهبوط نهارا، رأيت الهدهد يدخل من الكوة مسلما في ليلة قمراء، وفي منقاره رقعة جلد جاء بها من رهد الخيل. قال لي:

(أني أحطت بوجه خلاصك؛ وجئتك من عشة زوجة الجلابي بنباً عظيم، هو ذا مشروح في هذه الرقعة).. فلما قرأت الرقعة وجدتها:
(لم تفهمي و البنجوس أن ما تبحشان عنه تركتماه خلفكما، كيرا للبنجوس أخت.. و الاستحل على البلدة اللعنة وتصبح الدنيا أم كواكية)..

ومضت الرقعة تشرح لي، كيف الخلاص مما أنا فيه من أسر.. فرأيت الأسد والثور قد غابا.. والقوس والسرطان قد طويا في طي تدوار الأفلاك، وبقى الميزان مستويا مع الثريا، التي طلعت من وراء الغيوم: رقيقة متألفة مما نسجته عناكب زوايا العالم! ولما انقطعت المسافة وانقرض الطريق، وفار التنور من الشكل المخروط، رأيت الأجرام العلوية اتصلت بها، وسمعت نغماتها ووقعها، وتعلمت إنشادها وأصواتها، وهي تفرع سمعي، كأنها صوت سلسلة تجر في صخرة صماء، فتكاد تنقطع أوتاري، و تنفصل مفاصلي، من لذة ما أنال! ولا يزال الأمر يتكرر، حتى انقشع الغمام وتخرقت المشيمة! وخرجت من المغارات والكهوف، حتى تقضيت من الحجرات

متوجهة إلى عين الحياة، فرأيت (أومي زكريا) وحدثته..
ورأيت رهد الخيل، وكيرا تشمر أذيالها وأنت تعانقها، فوقفت
زمانا بين الضلالة والهدى.. وهكذا كما ترى أيها الولد الشقي
البنجوس، كان حلمنا يصيب لحظة واحدة..
”استوقفتك تعطيني تفسيراً فزدت الأمر غموضاً!“
”ربما أن التفسير لديك وحدك!“
وانصرفت دون أن تلتفت وراءها، فخبأ صوتي كأنه يتعرض لاختناق
قاس!

منذ اعتلى أبو لكيلك الجنجويدي، دست السلطة في البلاد الكبيرة، حتى تحول نصف شعبها إلى لاجئين في دول الجوار، أو مهجرين داخلها، في أطراف المدن الكبيرة، أو مهاجرين و معتربين..

وفي هذا المكان الضيق، المتمزق، الحالم (القاهرة) عانى اللاجئون، معاناة لم يسبق لأحدهم تصورها، في أسوأ كوابيسه..

تصفح عبده الخال موقع (الحوار المتمدن) والصحف الالكترونية واحدة تلو الأخرى: كان الموضوع الرئيسي الذي يهيمن على الصحافة الالكترونية، هو موضوع اعتصام اللاجئيين بالقاهرة؛ خاصة البيان الذي أصدرته، مؤسسات مجتمع مدني غامضة!.. قرأ البيان بعجالة؛ ثم خرج من النت، وأغلق جهاز الكمبيوتر.

حاسب البائع ومضى لا يلوي على شيء.

كانت شوارع القاهرة كلها مشرعة أمامه، مفتحات لأشجان، هاربة عن الموضعة في داخله: نوع من الفقد الكلي والأسى، لعالم بعيد منفي في الذاكرة، لا يزال يحسه ويراه.. منذ تلك اللحظة التي وضع فيها الفكي إ بكر يده على كتف البنجوس، و التفت البنجوس منكسا رأسه تحت كفي الفكي، الذي قال بهدوء عميق:

”أنت مبارك بنجوس فابعد عن النساء، لو اقتربت منهن ستعود الدنيا أم كواكية“

كان البنجوس يشفي الأكمه والأبرص، ويطعم الجوعى. عندما ولد أحب أهل البلدة بعضهم البعض، وكفوا عن النميمة، وامتلات ضروع البهائم اليابسة باللبن..

حتى البهائم النافقة تجددت فيها الحياة!

بميلاد البنجوس، انحسر الجفاف عن الوديان، و عمرت الصحراء،
واخضرت الأراضي الميتة، وازدهرت الحلالات والفرقان، وعاد للحياة
(طريق الملح⁽¹⁾ ودرّب الأربعين⁽²⁾) ونهضت (مالحة⁽³⁾) مدينة، صغيرة،
زاهرة من جديد في قلب الصحراء، ملتقى لطرق التجارة والسفر.
وتيمة أساسية في كل أغنيات العشق، عن المسافر البعيد، عندما يعود
ويحضر معه الهدايا للحبيب.

حتى قطاع الطرق، شدتهم قوى جبارة إلى جوف الجبال؛ وأدغال
القمبيل وغابات صندل الردوم، وصار عالم الوديان، لأول مرة منذ
وقت طويل، يخلو من الجنجويد وابن آوى!

هكذا نأوا بميلاده دون سابق إنذار، ودون أن يفهموا سر هذه القوى،
التي تشدهم بعيدا عن الطرق والمارة، أصبحوا غير قادرين على قطعها.
رغم محاولاتهم الدؤوبة لاستيعاب هذا الأمر، وإيجاد تفسير له!
فكانوا عندما ينجحون في الوصول، إلى أحد الطرق. ويفشلون في
قطعها على السابلة، ينزعون شعر أنوفهم، ويشدون لحاهم في انفعال!
في العموم مثل ميلاد البنجوس ميلادا جديدا للحياة.. في الليلة
التي ولد فيها ضجت الوديان بالغناء السحري العجيب:

(البنجوس صندل الردوم،

جاموس البراري،

مشيش الوديان،

البنجوس جمال الغزلان)

- (1) طريق تجاري يربط السودان الغربي القديم بغرب أفريقيا.
- (2) يربط السودان الشمالي بمصر. كما يربط السودان الشمالي بالغربي.
- (3) مركز تجارة الملح في السودان الغربي القديم.

حتى شجيرات الريحان البري، وأشجار القمبيل الشاهقة، أطلقت
لضوعها العنان. وظل البنجوس يئد كل لحظة شوق، تستبد به
للصبية الحاملة كيرا.

وكانت كيرا فتاة خلاسية، ذات سحر غامض! كل من رآها قال إنها
عشة زوجة الجللاي، ولدت من جديد! ظهرت كيرا، في البلدة فجأة،
مثلما ظهر والدها الجللاي من قبل فجأة!..

كان ذلك قبل سنوات طويلة.. وقتها كان اومي زكريا والد البنجوس،
قد بلغ من العمر مبلغا، انقطع فيه عنه رجاء الاخصاب، رغم رغبته
التي لا تزال عارمة في النساء.

أومي زكريا لا شيء في هذه الحياة، ينقص عليه، سوى شوقه
الدائم للولد. ورغم محاولاته العديدة، منذ سنوات الصبا الأولى، لم
يرزق بهذا الولد، الذي يريده أبدا، فظل متوحدا في حزن كثيف
حتى انقطع عنه الأمل!

في وحدته الكثيفة تتردد في خاطره ذكرى حميمة، حين أحب عشة
زوجة الجللاي تاجر (أم دورور)

كان الجللاي قد جاء البلدة ذات (درت) قائظ، وهو صبي. وحكى عن
أهله في (دار صباح) ما وراء النهر. ورحلته الطويلة إلى هذه البلدة المنفية.

كان الجللاي يحكي حكاية رحلته، وأسبابها كل مرة بتكنيك مختلف..

ففي مرة يقول أن أهل بلده يتقاتلون على نساء بعضهم البعض،
وفي مرة أخرى قال انه تركهم، لأنه لم يعد يحتمل أنانيتهم وجشعهم،
وفي مرة ثالثة حكى عن خلافاته مع أسرته، فاعتادوا عليه، وجعلوه
بينهم بمنزلة ابن البلدة.

عمل الجللاي مع تاجر أم دورور، وبرع. إلى ان اختفى ذات يوم

وغاب لأشهر طويلة، وعندما عاد مرة أخرى، كانت برفقته عشة
ريحانة الوديان!

وقتها كان اومي زكريا قد تجاوز السبعين بقليل، و مضى عليه
وقت طويل، قبل أن تقلق خياله أنثى، أو تقض مضجعه امرأة!
ومنذ أن رأى عشة؛ حتى هيمنت على أحلام قيلولاته، وعاوده
اللهيب القديم، بعد شرب البقو تحت شجرة اللالوب.
كان يتكئ على ساعده، مستسلما لغفوة الظهيرة، فيصحو مبتلا..
ويضرب كفا بكف! مندهشا من الفحولة التي يحسها، بعد طول
انقطاع!

أعادت رؤيته لعشة، الحياة المنصرمة في شبابه مرة أخرى. إلى أن
أحس بأن الدم، الذي يجري في عروقه غير دمه، و وقع خطواته على
الأرض قد تغير، كان ماردا نشطا ابن ستين كلبة، قد تلبسه بالعنفوان
والفتوة. وبعث فيه قوة الشباب من جديد!

عاد أومي زكريا بذاكرته إلى الخلف، عندما جاء هاربا إلى هذه
البلدة.. كانت لحظتها الضربات البطيئة للطبول، تنقل إعلان موت
السلطان في أنحاء الفاشر، لتستقبل المستوطنات المحيطة الخبر، فتنقله
للمستوطنات البعيدة.

هكذا رحل أومي زكريا مخذولا من الأصدقاء.. الناس. المكان..
دون وداع ودون رفقة، سوى ذكرى حبيبته العذاب كيرا لنقي، التي
سيحكي عنها كثيرا بعد عشرات السنين، لعشة زوجة الجلابي تاجر أم
دورور، فتأثر كثيرا وتطلق اسمها على ابنتها التي لم تنجبها بعد!

اعتدل أومي وهو يركب حماره الأبيض، المكسو بالحريز وقد
تدلت الأجراس من عنقه، فيرقص الحمار على وقع غناء سري، فلا
يتمالك اومي نفسه، إلا وهو يمسك ربابته، ويغني لعشوش ريحانة

الوديان. التي بادلتها من خلف ظهر الجلالي، عشقا بعشق ووجدوا
بوجد.. في حقول الذرة والدخن.. في جرف الوادي، وبين أغصان شجر
القنا الكثيف، وفي قطية الضيوف ببيتها، عندما يغيب التاجر في
الحللات والفرقان.

وحين اكتشف الجلالي تاجر أم دورور أمر أومي، مما شاع من
أشعاره الرمزية المعلنه، أخذ زوجته بليل، وهرب بها متجها إلى
(تقلي) فقتله النوبة وأخذوا عشة!

قبلها كان الفكي ابكر قد اجتمع باومي:

“ما الذي أصابك زكريا. التاجر في حمانا والنساء دون عشة كثير؟”

“تتيمت بها وحدها يا سيدنا.. غرامها أعاد إلى صباي”

” إني آمرك بأن تترك (عشة كرو) في حالها“

”ارغب في ذلك لكن لا أستطيع سيدنا!“

”سأزوجك من غرة عيني (تاجا لنقي)، وهي فتاة بكر أصبى من
عشة كرو، لا يحلم بها من كان في مثل سنك“

”أمرك مطاع سيدنا“

وهكذا ولد البنجوس من تاجا لنقي، في تلك الليلة المقمرة، في
اللحظة ذاتها التي شلح فيها البرق العبادي، فالتقت أشواق الأرض
بحنان السماء..

كان صبيا بلون الطلح الملتهب. على وجهه ابتسامة صبوحة،
زاوية، أذهلت النساء العواجيز، اللائي تحلقن حول أمه، عندما
داهمها الطلق، في حقل الطماطم، تحت شجرة القمبيل (وأصابت
الميرم كلتوم بصمت غامض).

أفصحت العواجيز عن خوف عميق وهمسن في رعب:

”إنها علامة آخر الزمان“

فرماهن البنجوس بنظرة، بدت اسيانة في عمقها، ثم تلفت حوله،
فرأى القابلة الميرم كلتوم، تضعه في حجر أمه، التي كانت قد غابت
عن الوعي، منذ جاءها المخاض، فقال لها:
”برفق“

فأفلتته الميرم مذعورة، وتراجعت في ارتياح (الأول مرة ينتاب الميرم
مثل هذا الشعور!).. أفاق الميرم تاجا من غيبوبة مخاضها، فابتسم
في وجهها وتمتم ضاحكا بكلام غير مفهوم. فغابت عن الوعي مرة
أخرى!

الآن في غربته البديعة، لا تفتأ ذاكرته تغادر المكان، حيث كان
يجلس كل يوم، يحدق في عربات أم دورور، والناس والدروب، التي
تفضي إلى أدغال القمييل والقنا، والوديان خارج البلدة. لتنتهي في
الحللات التي تحيطها.

يحدق في كل شيء حوله ساهما، دون أن يحاول زفر الغبار، الذي
يتسلل إلى رثتيه، كما كان يفعل في الماضي..

الناس الذين كفوا عن تساؤلاتهم، واكتفوا بإلقاء التحية العابرة، دون
أن يتوقفوا، أيضا كانت تحاياهم تضخم عزلته، التي عاظمتها الأسئلة،
فيمسك ربابته ويبدأ في العزف على أوتارها، مدائح النبي العدناني
التي ألفها، وخلطها بالغرزل في حسناوات الفرقان، وشكل من هذا
الخليط، بوحه لكيرا لنقي البسطونة.. صندل الوديان ورتابة القيزان!
لم يكن البنجوس قد ورث من أبيه زكريا الربابة فقط، بل تلك
القوائد الغزلية الشهيرة أيضا، التي تغنى بها زكريا غراما فاجعا، في
عشة ريحانة الوديان، وغدر الزمان.

تسفر الذاكرة عن أطراف، تنتقل بين محطات حياته المختلفة،
رهما تتوقف هنا أو هناك، حيث بلدته المحاطة بالمروج الخضراء،
التي ينهض أومي زكريا في قلبها واضعا ربابته، على صدره يغني مع
الشجن الذكريات..

فتغني مع البنجوس الأبقار والأغنام، وهي تجتر في قيلولاتها ما
اختزنته من عشب الوديان الطازج وحشائشها الطرية.

عندما خرج الشيخ أومي زكريا، من قلب الضوء ليلة دخلته على
الميرم تاجا، أخذ نفسا عميقا وزفر بهرا خاطفة كالبرق، حتى التمعت
عيناه لمعان غريب!

اخذ نفسا عميقا آخرًا، وشعر بالضوء يتسلل خلاياه ويسكنها..

كان في هالة الضوء قد رأى طفله البنجوس، الذي سيولد ينسل
خلسة من صلبه.. شعر بألم لذيذ يخلخل كيانه كله، ويصيب تاجا
برعشة لم يألها من قبل. رهما تخيلها في وحدته الموحشة يوما قبل
أن يرى عشة..

رهما عاش ما يشبهها مع عشة. لكن هذه الرعشة، التي استفرغت
بعدها تاجا أحشائها، ليس كمثلها رعشة تشبهها، في حياته المديدة
المليئة بالنساء، وذكريات الكيرا!

قبل أن يدخل على تاجا كان مترددا، يخشى ألا يستجيب إليها، بعد أن
عرف في عشة ما عرف. وحين مضى الأمر، شعر بغبطة لا تعادلها غبطة،
دفعته لأن يقول لتاجا في همس محموم، وهو يمسح من فمها أثر الاستفراغ:

”ستنجبين البنجوس يا أخت دمي“

كان زكريا منذ أعادت له عشة صباه، أدرك أن أيام وحدته قد
ولت إلى الأبد. وهكذا عندما ولدت له البنجوس، كان صيبا بلون

الطلع المبرِّح بالنار والذكريات الحميمة، والعشق المختلس و طيف الحبيب البعيد.

كان عندما يفيق من النوم كل صباح، يبدو انه كبر شهرا في نومه. و كان يكبر بسرعة، فارتاد خلوى جده الفكي ابكر لوحده، وجلس بين (المهاجرية⁽¹⁾) كواحد منهم.

في البدء لم يكن الفكي ابكر، يسمح له بحمل الربابة، التي أهداها له والده أثناء الدرس، ثم غض الفكي الطرف محبة في حفيده المبارك، بعد أن فشلت محاولاته وحيله المختلفة، في إقناعه بترك ربابته في البيت.

عقل البنجوس الحاد، كان يلتهم القرآن والسيرة، والأحاديث وعلوم الدين المختلفة، التهاما روع الفكي ابكر، الذي بعد تفكير عميق وتدبر أباه عنه، في تعليم (المهاجرية) في غيابه، وكان البنجوس ما أن ينهي درسه، حتى يمضي إلى طرف البلدة، عند دغل القميل، ويمسك بربابته ويعزف قصائده الهجين، التي بين منزلتين في المحبة للنبي العربي، وكيرا (البسطونة) فتصمت العصافير ويسكن حفيف الأشجار، ويتوقف تيار الزمن في (مشيش) الماء في الوادي. ثم يتمايل كل شيء في حركة ناعمة، لدى سماع الموجودات إنشاد البنجوس، ونغمات ربابته التي تحاكي مزامير داود!

تخرج من بين المشيش وأغصان الشجر، أطياف نساء حسان في غلائل شفافة، يرقصن في طرب. وتخرج كيرا البسطونة من بينهن، تتقدم منه وتضع راحتيها على صدره.

يترك الربابة و يضحك، وهو يتحسس أصابعها الطفلة، تجلس قربه فيحكي لها أسرار الشجر، والأبقار والوادي وطفولة الماء المشيش. ثم لا يلبث، أن يأتي أحد الأقران مع محبوبته، فيجلسان جوارهما وينتتان

(1) طلاب العلم الديني التقليدي في الخلاوى: جمع خلوى.

باهتمام لحكايات (الربابة) التي دنفها العشق. ذات صبيحة نديانة جمع البنجوس المهاجرية، وأخبرهم أنه رأى سليمان الحكيم برفقة النبي الخضر وذو القرنين، في نوم بين بين، يباركون إنشاد ربابته. فسأله أحد المهاجرية:

”وماذا قالوا لك بعد ذلك؟“

تلقت البنجوس حوله، وهو يحك رأسه كالذي يتذكر: ”حكي الحكيم عن تناول الحفاة العراة. علامة الساعة، خصص راكبي الإبل والجياد“

هز المهاجرية رؤوسهم. أشار لهم البنجوس فتفرقوا، و مندها أخذ ينشد تلك القصائد الهجين، التي اختلط فيها مدح النبي العربي، بغزله في كيرا البسطونة، ومضى شعر المحبة بالبنجوس، إلى سبابس النساء ووهادهن. فلم يترك نتوءا أو منعظفا إلا وقال فيه ما أصبح مضربا للمثل في باب العشق والعشاق!

فملأت أشعاره الحلالات والفرقان، وتعدتها إلى القرى والبلدات البعيدة، حتى تخوم دار صباح، وما وراء النهر.

واتكأت عند البحر الملون حيث تطلع الشمس. وحيث يعيش أهل الجلالي التاجر، الذي قتله النوبة في تقلي كما أفادت إحدى الروايات.

وكان إذا استبدت به النشوة والجذب، يجمع الصبايا وكل عروس للرقص في فناء داره، ممسكا ربابته عازفا عليها (كل ضربة لها نغمة، يفيق بها المجنون و تذهل منها العقول، وتطرب لها الحيوانات والجمادات).

كان البنجوس محروما من شهوات الدنيا، كقديس يتيم، حاصره الوجد الإلهي. وكانت ربابته إذا تركت على مبعدة منه، تحس بإقتراب البنجوس منها، فترسل أنغامها دون أن يضرب عليها أحدا!

عشق البنجوس لكيرا ليس كمثله عشق، إذ تدهم وحدته فيفيق منها. يمد أصابعه يتحسس عريها. تفيق من حلمها: وهي ترى نفسها تخرج منه شيئا فشيئا، و صورته وصورتها تتكرران: تارة أطفال وتارة أخرى في شرخ الصبا.

وكان قد اقترب منها، فأخذت تسحبه إلى قلب حكايتهما، التي لم يحكيها والتي بدأت ذات يوم تجلى فيه البدر عن صفاءه، وتبدى الفراغ عن ظمأ متوحد في النار والماء والرمل، فجعل يمضي في البراري والقفار، مهتديا بصوى الساري، يذر خلفه الرمل حيننا وحيننا يخب، كبعير فحل! ويقول:

”يا أخت دمي، تأملت النجوم ليلا وحادثتها!“

”حادثت النجوم؟!“

”كانت عزائي في الطريق إليك.. حدثتني عن..“

وتقاطعه:

”عن ماذا حدثتك النجوم، أخبرني“

”ستطول الألفة بيننا ما طال الزمان.. هكذا أخبرني صفي الروح

سليمان“

”لا ادري ما كنت في المبتدأ؛ لكنني كنت أدرك أنني بحاجة لآخر. كنت غريبة، فمن الغربة جئت.. أنت هي الغربة التي اشعر بها.. كنت غريبة! حولي الأشجار التي تتخللها الغدران؛ التي تكاثف حولها الريحان والزرجس.. فقط الزرجس. أوليس الزرجس وحيدا وغريبا؟ ومتوحدا مثلي؟!“

تعاقبت علي الفصول في تقلي ببردها وريحها وعواصفها وأمطارها الغزيرة والشحيجة، وفي كل فصل كنت أرفع عقيرتي بالغناء، علك

تسمعني فأخرج منك إليك ولكني بقيت.. آه يا شقيق دمي!.. تعذبت كثيرا..

بل انتظرتك طويلا؛ فمنذ ماتت أمي عشة، وأنا أحلم بك، و أتحنين الفرص للهرب.

أنهكك الانتظار.. لا أزال أشعر بالرهق من رحلتي، لا تحمل حياتي سوى علامات اليتيم والأب القليل، والأم التي أضناها التزل والتعب.. رحلت. تهت في فيافي موحشة، برقها خلب.. غدرانها سراب، لكني وصلت.

كان نداءك دليلي في الطريق، ظلي في النهارات الغائظة، أنيسي في الليالي المظلمة، يكفي انك وصلت. تنكرت أمي في حياتها لاشتياقني لك، لم تألف عشة مثل هذا الحب، ما أن قادها نهير إلى سراب، حتى شيدت حصنا من ترملةا، وذكريات حبها المجهض! كنت أدرك أن تحذير جدي الفيكي ابكر وحصنه سينهار يوما. كنت أدرك أنني سأتخلص من عظمي، دمي، لأحصل على من يعذبني ويشقيني.

لماذا تقول ذلك؟ ستصبح الدنيا أم كواكية ؛ لو اكتمل حبنا، ففي المنتهى تذوي الأشجار ارتواء، ولا يفل الحديد سوى الحديد!“

مداهمة الجنجويد وقطاع الطرق للبلدة، تكررت في حلالات وقرى أخرى. مندها قرر البنجوس، أن يأخذ أمه ويهرب، إلى ما وراء النهر. وهكذا اختفى البنجوس والميرم تاجا، في أحد الصباحات الباردة، دون أن يخلفا وراءهما أثر.

وبعد أن فشل الأهالي في العثور على البنجوس، جمعهم الفكي ابكر في زريبة داره.

وما أن تجمع كل طلابه المهاجرية، حول قداح العصيدة الكبيرة واكل الجميع، وشربوا البقو خطب فيهم الفكي ابكر..

حدثهم عن البلدة ملتقى تجارة العاج وريش النعام.. حدثهم عن هرب خصي السلطان الأول، ورحلة بحثه عن النور، وانقسام الناس إلى فئات عديدة متصارعة، بسبب السعي للسيطرة على الموارد والمكان!

وحتى لهم عن هرب التاجر الجلاي، بزوجته التي حبلت من أومي زكريا غفلة!

وكيف أن التاجر الجلاي ذاته، كان يكرر رحلة الهروب، التي لم ينج منها في المرة الثانية؛ فقتل عند مشارف تقلي.

وكيف أن هربه من دياره، حيث تشرق الشمس، كان بسبب تقاتل الناس هناك على (كلام الدنيا)..

بعد وقت طويل، تسللت إلى ذاكرة البنجوس، أحاديث الفكي ابكر، وهو يموت في هجوم القوات الحكومية، على البلدة برفقة الجنجويد.

“لكن لماذا قتلوا الفكي ابكر وقد كان منهم؟!”

كان البنجوس يستعيد حكايا الفكي أبكر، عن الغريب الأبيض،
الذي جاء إلى البلدة، ذات ظهيرة حارقة.

كان كأنه يستعيد حياته الهاربة، بين نغمات الربابة الشجية، التي
افتقدها منذ غادر البلدة الصحراوية خلصة.

في الليلة التي هرب فيها البنجوس من البلدة، قصد طريق المملح،
ثم هبط نحو درب الأربعين، إلى أن وصل بعد أيام وليال، إلى البلدة
النهرية..

كان منهكا. وبين آن وآخر يتسقط الأخبار عن بلدته الصحراوية
البعيدة، وبعد مرور عشرات السنين، بعد أن تقاعد من عمله في
الجيش، عرف من الأخبار أنها تعرضت للهجوم، وحملت إليه الأنباء
بروز مجموعة مسلحة من المزارعين، ولم تمض بعدها سوى أيام حتى
تواترت أخبار جديدة، عن أن المجموعة المسلحة، قامت بمهاجمة
المطار شمال البلدة الصحراوية! وأكدت الشائعات، التي انتشرت.
مقتل العشرات من القوات الحكومية.

وكانت المجموعة المسلحة، التي أعلنت عن نفسها، قد وزعت
منشورات، أكدت فيها أن هجومها على المطار، جاء كتعبير عن
احتجاجها على فشل الحكومة، في إيقاف الجنجويد عند حدهم، بل
وتواطؤ قواتها مع الجنجويد، في حرق القرى والفرقان..

بعدها بأيام قليلة أخذ أهالي القرى في أسواق (أم دورور) الأسبوعية
يتحدثون عن (التهميش) والحرب على دار صباح!

ومنذها أخذت تلك الرؤى والأحلام القديمة، تعاود البنجوس..

كان البنجوس صالح الكومندان السبعيني، يرى نفسه فيما يرى النائم، يعود شابا من جديد، في شرخ الصبا.. يشرب البقو و يرقص عاريا، بفتوة عشرات السنوات، لا زال يغيب في إيقاع الطبول، وأنغام ربابته المنسية، ويجد نفسه متكئا على صدر الكيرا المتحفز.. تدلك جسده العاري، المتمدد كجبل اب كردوس!

وتجذبه فينهض أمام الجبل السامق في العرى، كأنه يحتوي الكون كله، فيدلفان إلى قلب الجبل، حيث ينتظره المزارعين الثوار، مصطفين في صفوف دقيقة، يحيونه ويهتفون بالجلالات العسكرية:

(سمره يا سمراء.. يا سمارة،

الطالب الحربي ياسمارة،

امو تبكي عليه.. يا سماره،

تاني وين تلقيه..يا سماره...)

وكانت هجمات الجنجويد على القرى في تزايد مستمر، بينما المجموعة المسلحة تحاول إلحاق أقصى ضرر بالقوات الحكومية، التي بدأت بمرور الوقت تشعر بالاستنزاف. فأخذت تتحدث عن هدنة وسلام واستفتاء.

لكن تزامن ذلك مع ما تطلقه القوات الحكومية، من شائعات هجومات مكثفة، على مزيد من القرى والفرقان، بحثا عن المتعاطفين مع المجموعة المسلحة، التي ظهرت في الشمال، وتجاوزت رهد الخيل إلى جبل الكبش المقدس.

وعندما اشتدت المعارك بينهما، حاول وسطاء الجوار، في طرابلس

والقاهرة وانجمينا، التدخل لدفع الأطراف المتصارعة للجلوس إلى التفاوض. لكن فشلت كل المحاولات، حتى أن مفاوضات ابوجا التي راهن عليها الجميع (بما في ذلك الإقليم والعالم) باءت بالفشل لأكثر من مرة!

وظلت الهجمات تزداد شراسة بمرور الوقت، وأعداد الضحايا تتضاعف. كانت الهجمات على القرى والبلدات، تتم بواسطة عناصر الجنجويد المدعومة بقوات حكومية، تحاصر القرى عادة في المساء، أو أثناء النهار لمباغثة المزارعين العزل، دون أن يكون لديهم الوقت الكافي للفرار أو الدفاع عن أنفسهم!

وتبدو الهجمات منسقة ومخططة بدقة مسبقة، وتحصل عادة في أيام أسواق أم دورور الأسبوعية، أو أثناء الصلاة حيث يتجمع الناس. أحد الناجين، حكي للبنجوس دامع العينين مختنقا بالعبرات، وقد تكاثفت على جراحات الدنيا وآلامها في وجهه، عن ما رأى من أهوال حرب بشعة، لم يكن يخالف نفسه سيشهدها يوما!

بعد عشرات السنوات، من هرب البنجوس من بلدته الصحراوية، وانضمامه إلى الجيش، واستقراره في البلدة النهرية، أصبح من الصعب تتبع سيرته الذاتية، ولم يعد ممكنا الجزم، بأن من صار اسمه عبده الخال هو البنجوس ذاته!

خاصة أن البنجوس كان قد تبنى، ابنا وحيدا كشجرة حراز في قوز نائي، أطلق عليه اسم عبد الله، اشتهر وسط أقرانه بعبده الخال، بسبب الأبوة التي كان يسبغها عليهم، وإخلاصه في حمايتهم، وبسبب إدمان عبده الخال لحكايا والده البنجوس، أصبح من الصعب التفريق بينهما، ومعرفة من فيهما هو البنجوس بالضبط!

لكن ما كان مؤكدا ويتفق عليه الجميع، أن البنجوس وجد في الجيش، ما يشبع رغباته الحبيسة!

مسارب الايدولوجيا تتمدد، لتلقي بظلالها على الجبل الناهض في الدم، شاهقا كشلالته، مدويا كتاريخه المرعب، لحظة سقط آلاف القتلى لنقله من هذا المكان، إلى حيث النهران يلتقيان، حيث تثوي بقايا (مروي) لتتبدى بين آن وآخر؛ الدلالات المعقدة لروح الجبل، في فضاءات دار صباح. لكنك الآن يا عبده، تقرر الرحيل كأحد الجرحى الذين سقطوا في معركة نقل الجبل، الذي انتقلت ظلاله لتشكّل نسيجا جديدا في هذه الجغرافيا، نسيجا بامكان ثورته أن توقف دورة الحياة، إذ تنطفئ القناديل في العشوائيات، ومسكن القش والصفوح والطين اللين.. تغلق الدكاكين أبوابها في سوق كرور امبدة، وسوق ستة الحاج يوسف، فتتلاشى الحياة رويدا رويدا مثلما بدأت..

هذا النسيج الأسود الممتد على خاصرة النهر، ابن الوادي، صديق الجبل، غريم الصحراء: التيه والمنفى! هذا النسيج الأخضر، لا يزال مهددا بالحنين واللوعة، يحاول ارواء ظمأه بالبقاء، الصفح والاطمئنان.. لكن القلق الذي حقنت به شرايين الجغرافيا وأوردة التاريخ، وأحلام البدو الرحل المغامرين، يأبى إلا أن يحاصر الحنين؛ ليشيد فيه وطنا للمنفين والتائهين، فلا يكون سوى إذكاء اللوعة، ودفع الأخضر للغياب في نزييف الجبل.

الآن ترحل مثلما رحل أومي زكريا، في تلك الليلة مطاردا من السلطان، دون أن ينصفه أحد، ودون أن يسمع خبر موت السلطان، إذ حاصر (الخصي الأول) المقرب من السلطان، الخبر دون الذبوع، فبقى سرا كامنا في جُدر الفاشر وأزقتها وحواريها، حتى لا ينشب صراعا على العرش، وحتى لا يتأثر الجند الذين يحاربون في طريق الملح.

مات السلطان. فتركت النار المقدسة داخل القصر. لتتطفئ وحدها. وحمل جثمانه المقدس إلى (طُرة) ليدفن مع أسلافه المقدسين. ترحل الآن مثل أومي، مخدولا دون رفقة سوى لمياء، حبيبتك الفريدة. ترحلان مع إيقاع الضربات الحزينة للطبول، كما رحل أومي زكريا.. كما رحل البنجوس، ذات مساء بعيد وحزين. ترحل دون أن تسمع (الموجية) يعلنون اسم السلطان الجديد، ترحل دون أن تشهد طقوس التنصيب. السلطان الجديد يخرج من عزلته البديعة، في الأكواخ. داخل ابعده أفناء القصر، يخرج من اعتكافه الذي دام أسبوع، يستقبل الكيرا تحت قيادة ملكتهن ليؤدي الشعائر، فيشهرن حراهن، ويحملن سعف النخيل، وجرة السائل المقدس..

يرششن السلطان بين آونة وأخرى وينشدن:

(أومي.. أومي..

دام.. دام..

داما ريفا دوي..

دوي.. دوي.. دوي..

لمن ينظر الموت؟

لمن؟؟..

انه السلطان..

خالد في الأسلاف..

داما ريفا.. داما ريفا دوي..

تبارك الملك المقدس..

سليل الجبل.. داما ريفا.. دام .. دام..)

ويأخذن السلطان في موكب مهيب، إلى بيت النحاس مع الحرس السلطاني، بالقرب من بوابة الذكور، ليلقين عليه وصايا الأسلاف وتعاليمهم المقدسة، ثم يخرجن به يتحلقن حول (المنصورة) الطبل المقدس الأكبر..

يرددن أهازيج التنصيب، ويضربن بحراهن على الأرض الصخرية، ثم يصحن السلطان لوضعه على الككر، ليضع هذا الزعيم التاج على رأسه، ويضع زعيم آخر العمامة.

ثم يؤدي الجميع يمين الولاء، وبإشعال النار المقدسة يتوج السلطان.. الذي غادرت أنت دون أن تشهد تتويجه، تخرج الآن في ليلة مكفهرة، مثل خروج جدك أومي زكريا قبل عشرات السنوات، من قلب الوادي.. بعيدا عن الجبل المقدس..

أنت يا عبده الخال من سلالة المنفيين. الذين خربت أعجوبة بلادهم. فساورا لم تهلكها الجيوش الغازية، بل أهلكتها حيزبون، أشعلت بابنتها الحورية الساحرة النيران في القصر والمدينة، ليتنامى أوار الحرب، ويندثر كل شيء، كأنه لم يكن يوما..

قبل أن يرحل اومي، كان قد انسل خلسة من منطقة الذكور الشمالية في الفاشر. محاولا الوصول إلى منطقة الإناث الجنوبية، بحثا عن حبيبته العذاب السمراء الفارعة كيرا، ليقبلها قبله الوداع..

مر بالدواوين. أماكن الاستقبال، والطريق المؤدي إلى أماكن النساء الملكيات، والمحظيات وبعض الخصيان، باحثا عن كيرا الجميلة دون جدوى.

غامر بدخول القسم الذي يضم الموظفين والخدم والرقيق، لكن لم يكن ثمة أحد. كان الصمت مخيما على كل شيء، بشكل يدعو للخوف والرهبة، فخرج مباشرة عبر بوابة الرجال، ومارا بالحظائر الكبيرة

التي تضم الجياد الملكية، والسائسين والرسل الملكيين والمنادين. كانت أكواخ الكوركوا (الحرس السلطاني) خالية ولا يوجد أحد سوى اللوبينقا (العاجزين جنسيا) الذين خيم عليهم حزن مقيم.

تراجع أومي عن الاستمرار في مغامرته المحفوفة بالمخاطر، ومضى وهو يرمق الطريق المؤدي؛ إلى أماكن النساء الملكيات، بنظرة أخيرة حزينة، عميقة الأسى واللوعة.

هكذا رحل اومي عن الوادي، مثلك تماما وأنت ترمق دار صباح الآن مودعا، دون ألم.. دون حنين.. دون وطن تحمله معك!..

في ذلك اليوم الذي قتل فيه دالي، انتحر ألف فارس، وقتل الأهالي بعضهم البعض، والذين تبقوا، أزاحوا أكمات الحجارة المثلثة، ليدفنون الشهداء داخلها. وضعوا الشهداء في الأضرحة المحفورة في الصخر، على الأسرة الجنائزية، وأعيدت الحجارة المثلثة إلى مكانها، لتعود الأكمات مرة أخرى كما كانت، ليصبح الشهداء جزء من جبل نومي!

فتح دالي البلاد للمنفيين والفارين والمضطهدين في أوطانهم، الهارين من النوبة السفلى، والقادمين من خلف طريق الملح، وتخوم الصحراء الليبية.

كان دالي يكرر:

”طوبى للغرباء!“

ويقدم لهم العون والحماية. فصار به الوادي أرض الأحلام الكبيرة، والتطلعات العظيمة. يفتد إليها المهاجرون البؤساء من كل مكان: خلف تخوم الصحراء.. عبر النيل.. فيفرغون أحزانهم ويواسيهم دالي ويهديء بالهم، ويمنحهم فرصة ثانية. ليبدأون حياتهم من جديد..

ما أن وطأت قدما البنجوس ارض المعسكر، حتى عاوده انتماءه القديم لهذا المكان: الجغرافيا، الناس، الوديان، الجبال، الغابات والقيزان.

كانت أحاديث الأهالي هي ذاتها، وكأنها لا تتغير رغم مضي السنوات، لا يزال الرهد شغل بالهم الشاغل.. نسجوا حوله كثير من الحكايات قالوا:

”مسكون بالجن وكائناتهم العجيبة. يمتلئ في العصاري بالخيول البيضاء الفريدة“

ويؤكدون أن أحدا لم ينجح في الإمساك، بأحد هذه الخيول، كما لم ينجح أحد من الذين أطلقوا إناث الخيول، حول الرهد في أن تهجنها تلك الخيول البيضاء الفريدة، إذ كانت تنفر منها ولا تقربها!

قالوا أنه معقل ثوار الظل الكامنين، الذين ينتظرون علامة دالي، لينهضوا بشؤون الثورة، ويشكلون مملكة الكيرا من جديد!

جددت هذه الحكايات، الرؤى القديمة للبنجوس وأشعلت رغباته الدفينة. في أحد المساءات المميزة بنكهة القميل، المتضوعة من أشجار الوادي المفعم بالريحان البري، تسحب.. تسحب من المعسكر واقترب من البلدة الوادعة، أسفل الجبل، الذي نهضت مملكة هذا الشعب من ظلماته، إذ حجب بداياتها ولم يعلن عن مولدها، إلا والشعب يتمدد في الوديان والسهول! البلدة، التي كانت بلدته ذات يوم!

يجمع المؤرخون أن (تونق دالي) (قصر دالي بجبل فوقا، في إقليم طرة شمال جبل مرة) بمبانيه الدائرية الثلاث، التي تضم عدة

صفوف من الغرف الدائرية، المبنية من الحجر يقف شاهداً، على
الميلاد السري المنظم لمملكة ذلك الشعب.

دخل البنجوس أحد القطا طي المزروبة بالقنا والشوك، وتبع الميرم
كلتوم دليلته، متجهين إلى رهد الخيل، وعندما اقتربا انسحبت الميرم
راجعة، وهي تشير باتجاه الرهد، دون أن تنبس ببنت شفة.

اقترب البنجوس ببطء، حتى لم يعد يفصله عن الرهد، سوى أمتار
قليلة، ووقف كالمتصلب.

لم يشعر بالشمس، وهي تتحول من صفحة السماء، مائلة إلى الأفق
الغربي، ولونها يستحيل شيئاً فشيئاً إلى البرتقالي. تضاءلت، تضاءلت
حتى لم يتبق سوى ضوءها المختنق!

عندما انبجس فجأة عن الرهد وأطرافه عالمًا بأكمله: الناس
والسوق والقطا طي والحيوانات والأشياء.

عالمًا لا يدري كيف هو توزيعه بهذه الزوايا، التي يتبدى الرهد
والعالم كله واضحاً خلالها، دون أن يخفي شيئاً.

ثمّة فسحة صغيرة انتصبت فوقها النقاير، وتحلق حولها الرجال
والنساء. اكتشف أحدهم بالقرب منه! لم يخامر شعور محدد؛ هزه
الرجل وهو يقدم له قرعة:

” تفضل. تفضل أنت ضيفنا“

وبشكل آلي مد البنجوس يده يأخذ القرعة. شرب البقو اللذيذ
اللاسع. اتبته لصوت النقارة ينتزعه. التفت حوله فتاتان عاريتا
الجسد. إلا من كنفوسين ملونين، وجذبتاه إلى مركز الحلقة!

اخذ يتمايل مع إيقاع النقارة وينقز. كان قد غاب في إيقاع
الطبول، التي تخللها الصوت المألوف لربابته القديمة.

وحين توقف الرقص، وجد نفسه متكئا على بروز، تلمسه اكتشف فيه صدر احدي الفتاتين، اللتين جذبتاه إلى الحلقة، وكل شيء قد اختفى، سوى فرس ابيض على حافة الرهد، نظر إليها بتساؤل وهو يسترد نفسه شيئا فشيئا.

جذبت الفتاة كفه وأخذت تقرأ فيه، ثم ختمت مهماتها: ”أنا كيرا لنقي. لا، لا. لا تقل شيئا فأنت متعب“

ثم صفرت للفرس الابيض بنغم مميز، فأسرع تجاهها. أراد البنجوس أن يقود الفرس، فقالت دون أن تنظر إليه: منذ استخدمت ايباسي الكنداكة قوة المرأة، في الازدراء لتملاً شاو تصميمي على مقاومة الخواجات النصارى:

”إذا لم تقاات اعطني سروالك وخذ كانبوسي، فأنت لست برجل!“

منذها والنساء وحدهن يقدن الفرس!..

كانت الكنداكة تتقمص روح جدتها ايباسي أم النصر زمزم.. التي كانت هي الحاكم الفعلي للمملكة، في ميلادها الاخير، وهي تخرج من أعماق الجبل للتو! كانت تتجول على راس الرجال المسلحين، وترعب الرجال بركوبها الحصان بذات طريقتهم، وثيابها معقودة بإحكام إلى أعلى، كما تفعل النساء الملكيات المرعبات!

تصدر المراسيم باسمها، تعين القضاة ليحكمون باسمها، وتسير أمام الجيوش. كانت امرأة بألف رجل! ”أنا روحها. روح أيا باسي أم النصر“ ركب خلفها، احتضنها. اكتشف جسده للمرة الأولى بطريقة مختلفة، وهو ملتصق بجسمها العاري، إلا من الكنفوس الملون. كانت دافئة نافرة التضاريس، بضة ككل النساء الفاتنات. فاته إن ينتبه لمعالم الطريق، فقط اكتشف فجأة توقفهما أمام جبل..

جبل سامق، وعاري كأنه يحتوي الكون كله. تتساقط منه المياه بشدة، ليأخذ إيقاعها إيقاع الطبول، ونغمات ربابته المنسية..

”انه تونق كيلو (قصر كيلو: سليمان سولونق الأب المؤسس) وتلك هي مساكن الجورنيقا (الجند الشباب) وذلك هو مسكن الاورنانق (القائد الذي يعينه الشيوخ للشباب) شمالها“

قالت كيرا وهي تطوق بإشاراتها معالم المكان، ثم أضافت:

”اعتمد سولونق على الجورنيقا، مثلما اعتمد العثمانيون على الانكشارية لتحقيق أحلامهم التوسعية!“

الفواشر نهضت بأحلام سولونق، من قلب ظلمات الجبل، لتتمدد في السهول والوديان والقيزان.

نحن الآن في جبل نامي، وحيث تسقط المياه يتجدد إيقاع الطبول، انه جبل الطبول، مرة!

ولجا بين ساقي الجبل، الفتحة التي أسفل الخاصرة تماما، حيث نامي منتصبا، يقذف إيقاع الطبول والربابة في شلالاته الرهيبة.. قاداته لأعلى، انحدرنا في التواء يؤدي إلى ردهة واسعة، بها بعض الأنصاب الملونة والمجامر، وضوء خافت..عجز عن تحديد المكان الذي يتسلل منه.. قالت كيرا:

”سنعبر الآن تونق كيلو. هذا القصر شاهد على التحول إلى المركزية الإسلامية، التي قضت على الملكية الإفريقية القديمة، فراح السلطان عمر ليل والسلطان أبو القاسم ضحايا لهذا التحول. لكن.. نعم لم تتخلى عن نظامنا الأفريقي تماما، ستظل سطوته باقية ما بقى فووقوكوه (سكان الجبل).

منذ أن صار للرقيق والفقرا، والخصيان والمغامرون سطوة على البلاط، حتى انزوى القادة العسكريون.. جاءوا إلى هنا، إلى رهد الخيل..“

”لم نتركه خلفنا؟!“

”انه في كل مكان حول الجبل. أنه روح الجبل، المكان الحامي لتراث الأسلاف. المكان الذي انزوى فيه القادة العسكريون القدامى في الظلام، خلف تخوم روح الجبل، وهم يرقبون عرش السلطان يصبح نهبا لألاعيب محمد كرا (الطويل) الرقيق الجموح الذي أعدم ستين من أبناء العائلة المالكة، العائلة المقدسة.. ستين من الكيرا قتلى في الميدان خارج الفواشر.. قوز الستين..

كانت كربلاء أخرى. حقا كربلاء. لكن خرج له إبراهيم رماد (غير شرعي) من تخوم روح الجبل. قتل محمد كرا وأعاد الأمور إلى نصابها!“
ذات الضوء الخافت يتموج في المكان. بخور مخدر لذيد الرائحة، يشد الروح بعيدا، بعيدا.. قلب البنجوس بصره: معابد قديمة وأطلال لا حد لها؛ ترحل في الدم والشرايين والأوردة..

أجلسته على واحدة من الدكك الحجرية، وأحضرت قرعة من خلف طلل ما.. قرعة ممتلئة بعصير القمبيل شرب بنهم، ودون تردد حتى تكاثفت الرغوة على شاربيه، فجذبها بلسانه متملظا في تلذذ..
”لم تعد الآن ساو صولونج صولمنج (العربي عتاب الجراد الأحمر). أنت منا وقد عدت إلينا!“

وأخذت تتمتم بتعاويد مبهمه. أدرك أنها تؤدي طقوسا من الدين التقليدي لشعب الوادي، الذي طرد إلى أعالي الجبال.. قلب نظره في أطلال المعابد القديمة، وشيء كالخدر يسحبه إلى داخله ببطء.

كان صوتها يأتي منهدا بعيدا، خافتا، كالمتمسح على رمل رطب..

”مرت علينا سنوات كالحة لا تزال، منذ أن دنس الأتراك والمصريين وال دراويش أرض الوادي، وأصبحت أم كواكية (فوضى أمنية تسود

فيها أعمال القتل والنهب) لغة بديلة لكتاب دالي، لم يعد الوادي هو الوادي، ولا الجبل هو الجبل..

في سنوات أم كواكية. سفك الأتراك وال دراويش الدماء كما لم يسفكها محمد كرا، فتراجعنا إلى الجبل الذي منه جننا، تحت قيادة سلاطينا الظليين، الذين استماتوا في الدفاع عن الوادي والجبل.

طاردوا الأعداء في السهول والقيزان والغابات، لكن الخطر القادم من الغرب، والموت الآتي من الشرق دمرا حياتنا. تهدمت المعابد. عمت أم كواكية واختلفت ملامح الناس، وقسماتهم وجرى السم في دمهم، وشابت نفوسهم الشروخ.

مرت علينا سنوات ونحن مختبئين داخل الجبل، لا ندري بما يحدث خارجه. اختلفت على العرش وجوه ماكرة، لوثتها دماء الخطر الذي جاء من الغرب والشرق..

الوادي مركز الكون بين اتجاهين يتهدد بالزوال. تحركنا. نكشف عن وجودنا بين آن وآخر. نتنظر إبراهيم رماد يجيء من رحلته الطويلة، يقودنا لتحرير الوادي، ويعيد كتاب دالي إلى صدور الناس، الذين أنهكتهم سنوات أم كواكية، ويبنى المملكة كما كانت، وستظل في كتاب دالي المؤسس فورانق آري (السلطان رفيع المكانة) إبراهيم رماد من سلالتك أنت، فارغ كرا يحفظ علوم الأولين والآخريين“

كانت دواخل البنجوس ترتعش، وهو يرمقها بنظرة دانية. تنهدت بعمق. دنت منه، جذبها إليه. أنامته على حجرها ومددت ساقيه على الأرض الصلدة.

”لايبد انك فتران. سأدلكك. وأخذت تدلك جسده العاري، المتمدد كجبل أب كردوس، الصاخب كشلال مار تجلو..

واحتواهما دغل النخيل الباسق، بعد طراد طال لأيام عديدة..
 قالت (راوية) حبيبته العذاب وهو ينكفئ عليها: ”أنت تأخذني أخذا!“

فرد متصاعد الأنفاس:

” هكذا تورد الإبل“

ذات العبارة تقولها كل عام و ذات الإجابة، التي لم يفكر البنجوس في
 تغييرها أبدا. في هذا الوقت كان العربان. والنازحين من الحرب والجفاف،
 يأتون للعمل في مزارع التوابل، على الضفة الأخرى لنهر عطبرة،
 فتندلق في المدينة فتياتها الشبقات، وفتيانها المتكئين على أحزانهم.

وتنقبض الشهوات، تتقلص وتتمدد، فيتواطأ الجميع بالصمت على
 خبياتهم. ومع ذلك يأتي موسم الخصب الجماعي، في هذا الوقت من
 كل عام.

قبل أربع سنوات. اثر قدومه من صعيد النهر الأزرق، قال له
 العقيد ضياء الدين:

”أنت إشارة بنقلك إلى عطبرة كومنندان صالح بنجوس؛ سنعد لك
 أمر التحرك لتبَلِّغ عطبرة“

وبلَّغ البنجوس عطبرة، مندها والمدينة والنهر يتغولانه، ويدهمه
 ذات الحلم:

الرهذ والخيل والجبل في تخوم الوادي.. المدينة بأحلامها السرية،
 وعواملها الملتهبة، تشرع ظلالتها في مسامه. فينتظر راوية، الفتاة
 النخلة، التي نزحت أمها في الحرب الأهلية بجمال النوبة، بعد أن
 فقدت الأهل والوطن.

نزحت مرعوبة وهي ترى كل جبال النوبة تحترق! كان أهلها يحرقون داخل قواطعهم. تلتهمهم النيران شيئاً فشيئاً، وتلتهم معهم الذكريات والأحلام، وتذوي الآمال ويتهشم التاريخ، ولا يعد من الجغرافيا شيء. فتهرب إلى دار صباح وحيدة كنبّي طريد، تصاحب احد العربان.. وتتزوجه كيفما اتفق، فتثمر عشرتهما راوية، الخلاسية الفارعة، كذكرى للهزيمة والحريق وانشطار المكان!

الآن البنجوس ينتظر راوية يتأكله الصبر. تأت موسماً بعد آخر، معبأة بحنين بعيد، وصهيل خلاخيل ملتاعة، ولهيب لا ينطفئ أواره بالبرد، أو حبات الشبورة الساقطة من أفق السماء الغائمة.. كعذاب وترام كيكي تتأوه راوية:

”أنت عنيف!“

”ولذلك أحبتني حليلة.. سأنقل هذا العام للأسف“ ”الخرطوم؟“

”لا، أقصى الغرب. ربما بلدي التي هربت منها ذات يوم!“

”ألا تشتاق لزوجتك؟ حليلة“

”كثيراً“

”ربما أرحل أنا أيضاً“

”إلى أين؟“

”البحث“

”إذن سنلتقي يوماً ما“

”لا أظن!“

”لماذا يا راوية؟!“

”لا ادري! إنه إحساس!.. سأترك لك عنواني وكل شيء.. هل تشتاق إلي؟!“

”أكيد.. وأنت؟“

”لا ادري!“

قالت بصدق.. وهي تعطيه ظهرها، و تسند قدمها على جذع نخلة هرمة، تمد عنقها أقصى الفضاء، تنقلت عينيه بين ساقى راوية وساق النخلة. أحس بهما يتوحدان في الأرض.

لاحظ على ساق راوية العاري المشعر، ثمة عشبات عالقات في العرى المجنون، مد يده يزيلها عن الزغب، ودهمته رغبة مجنونة في انتزاع شعرات من ساقها العاري!

كان الوقت مساء عندما أتى متسحبا، وهو يتنقل مختبئا من نخلة لأخرى، شاهد راوية هناك في الأرض المنبسطة، المخططة وهي تنزع الأعشاب عن التوابل.

كان الفضاء متخما برائحة الثوم والشمار والكسيرة ورائحة النهر. أشار لراوية من مكمنه، وانتظر حتى أنهت عملها وابتدت متسحبة. التقاها بشوق وهو يحاول ضبط هذا الحنين البعيد، الذي يعود إلى عهد لم تورده التواريخ. وليس ثمة ما يشير إليه، في مقتنيات المتحف الوطني. أو الذاكرة الرسمية!

في ذلك المساء الموغل في البعد، تفض نزاعا حادا بين راوية واحد الشبان. وهكذا تعرف إليها: راوية الجميلة، النحيلة، الخشنة والشاحبة، ذات العينين الشاسعتين، اللتين تسعان الحنين كله:

”لا، أهلنا بعيد“

”وما الذي جاء بك إلى هنا؟“

”نأت للعمل في المزارع؛ في الموسم من كل عام“

في جراءة مترددة التهمت نظراته الجائعة صدرها المتحفز، ومضيا

يشقان معا دروب عطبرة المدينة العظنة، التي لم تكن قد أفادت بعد، من سكر ليلة البارحة، وتستعد الآن لتتقبل بالعرق، ورائحة التوابل، وانتظار التساب.

منذها وفي الموسم من كل عام، يداهم المزارع بحثا عن راوية، يجدها أحيانا وأحيانا أخرى يرتد خائبا، ليتفاجأ بها تنتظره في غرفته! راوية التوابل والتساب، والحنين الأزلي لخط السكة الحديد، الذي خرق الفرقان والقرى من أقصاها إلى أذناها، حتى ارتعشت مواجدها وأحلامها وانطفأت الشهوات..

علاقة الدم، تندلق على الذاكرة، فيتكون النهر الهادر، الذي يأخذ في طريقه، كل شيء مجيء التساب.

”مع ذلك عينيك خضراوين“

”لم تنتحر جدتي لأبي في البحر، إذ دهمتها خيول الدفتردار، مضت حتى حدود الحبشة ترفه عن جيش بلا قلب. تفو. اللعنة. أنت مثلهم؟“
”لا. لا يا راوية. أنا مثلك“

تنهد البنجوس.. الذكريات، الصور والأخيلة تتزاحم على ذاكرته. وتنداح..

”كان اومي زكريا (أبي) آخر المتبقين من حاشية السلطان، وهو يتجه غربا، عائدا إلى دياره خلصة، أثر انشغال الخليفة وجيشه في المعركة. لا زلت أذكر حديثه:

”لم نأت أم درمان كما يجيء الفاتحين، بل أشباه أرقاء.. انتزعتنا جحافل الدراويش من عروشنا، وأسرتنا كما تفعل بالعصاة“

طاولة مكتب المدير الافندي في الفاشر المدينة، تقعي أمام عرش السلطان، تغير الزمان، وما عاد هو الزمان!

الجبل.. الحد الفاصل للخطر القادم من الشرق، لم يعد ملاذا لا للسلطين أو العامة.

كان الجبل قاعدتهم الآمنة، فاضطروا للنزوح بأعداد مهولة نحو الجنوب الغربي، بضغط الزبير باشا وعجرفة الدراويش، وأساليب الإنجليز الإدارية! أرادوا القضاء على الجبل، في وجدان الناس! مثلما قضى عليه الغرباء في المرة الأولى في زمن سحيق، فارتحل في لجة رهد الخيل. “أنت.. البنجوس: آخر المتبقين من سلالة اومي زكريا، مثلي تماما أنا أومي آخر المتبقين من سلالة شاو“

كانت والدة أومي زكريا، قد أنجبت من الشايب شاو شرورو شطة سبعة رجال (يكفون عين العدو).. لم يبق منهم سوى اومي زكريا.. التهمهم الوادي، وادي أزوم الهدار، غرقوا في يمه دون أن يخلفوا أثرا، ولكن ظلوا جزء من ذاكرة الفاشر كلها.

وبهرب اومي إلى البلدة الصحراوية النائبة، جاءت معه ذاكرته الشخصية، التي أصبحت ذاكرة عامة. أصبح أخوته الغرقى، جزء من ذاكرة وادي البلدة الصحراوية، ذاكرة الوادي الأزلي، الذي له قداسة حياتهم وهم يتحلقون، أنصاف عراة حوله كل عام، يعزفون النقاير والربابة. حدادا مقيما.

”مثلما التهمت النيران اهلك أخذنا الوادي. الوادي.. الماء.. البحر سبرنا.. أخذهم وهم يحاولون إخراج (طويرة بلبلة) من أعماق (مرفعين) الماء الوحشي.. البحر دمر إخوة اومي زكريا“

”أنت تخاف البحر إذن“

”لا؛ كان أبوي يمنعاني من الوادي في طفولتي، يخافان على اللعنة. البحر بشيل عوامو.. البحر هو اللعنة التي أرسلتها الطبيعة على عواهنها، في ارتحالها البدوي التائه“

وذاث غسق مفعم بالشبورة، التي ما أن تتوقف عن السقوط،
حتى تبدأ من جديد، وقفا عاريين قبالة العطرراوي، سبحا في اتجاهين
متعاكسين، ثم متوازيين.. تباريا حتى شعرا بالتعب.

قالت راوية وهي تهز رأسها ليتساقط الماء:

”يقولوا الجن بيطلع من البحر في الوكت دة؟“

”وإنت ما خيفة؟“

”الموت والحياة والجن كلها تتساوى عندي“

كان الماء يقطر من نهديهها وجسمها بدا لامعا في الغسق. دنا
منها.. أتی صوتها مكتوما، منهدا ككبري عطبرة العتيق..

”عما قليل ويصبح النهر خطيرا ويلحقنا بأسلافك“

كان نهر عطبرة. قد بدا يهدر في قلق!..

أنهت كيرا تدليك جسد البنجوس العاري، المتمدد كجبل ابكردوس،
الصاحب كشلال مارتجلو. ونهضا يطوفان المكان، الذي تبدى عن
عوامل متداخلة. كل عالم يفضي إلى عالم رحب آخر..

”ظللنا على الدوام نعرف تاريخنا. قتل فورانق آري لم يكن نهاية
لهذا التاريخ الضارب الجذور في الجبل“ قالت كيرا وهي تشير إلى الككر
المهيب، الذي يتوسط القاعة الواسعة، المنحوتة في الجبل.. ثم أضافت:
”هذا هو عرش سليل الجاموس، الفيل ذو القوة العظيمة فورانق
آري. على هذا العرش جلس باسنقا (خلفاء السلطان) واحدا تلو الآخر،
يخلفون الكامني (سلطان الظل) وتحت لواء هذا الككر اجتمع
باسنقا يفسدون مخططات محمد كرا..

لم يختلف الكيرا أبدا إلا على عمر ليلة وأبو القاسم، في أزمة تولى
العرش، التي انتهت بموتهما.. لقد خرقا قانون دالي فكان مصيرهما الموت“
أصدرت كيرا صفيرا متقطعا، وهي تعتلي درجا إلى قلب الككر،
وتتمتم ببعض الكلمات الشعائرية المبهمة، وتلوح بعضا أخذتها برفق،
من مسند الككر المهيب. تلوح، وتلوح، وتلوح.. وهي تتمتم.. حتى
انعدت سحابة بيضاء في فضاء البهو الواسع. تجمعت ركاما، ونثرت
حبات من الندف الثلجي..

كان البنجوس ينظر لكل شيء حوله في دهشة، وقد الجم تماما.. نزلت
وتقدمت تقوده إلى شجرة تسد مدخل البهو.. أنها الشجرة المقدسة..
قالت تخاطب الشجرة: لا ترفض ذريتك، لقد جننا لأداء العوايد
(الشعائر) الواجبة لك عن كومورو (رئيس المطر).. وأخذت تصلي.

أشارت للبنجوس أن يفعل مثلها. أنهت كيرا صلاتها. وقفت قبالة البنجوس. حدقت في وجهه بعمق، وارتحلت به إلى غور ماض ابعده.. شبكت أصابعها في أصابعه. انبعثت إيقاعات شعائرية ناعمة، وحاملة وأخذا يتمايلان على وقعها، ثم أخذت تغني بصوت رخيم:

”أيها الشاب.. في طريق دربات؛

يأذي الجافانغا (جايي الضرائب) الناس،

تعال إبحث عن الثروة لعروستك.

مع فرقة إغارة اياباسي كيرا،

لقد تركت جيادها في رهد الخيل،

اركب إلى فرقة اياباسي كيرا..“

أصدرت كيرا صهيلا متقطعاً، فاطل الفرس الأبيض من مكان ما. اعتلت صهوة الفرس، وقالت:

”أركب خلفي“

” إلى أين؟“

رمقته بنظرة تحذير:

”سنمضي إلى مهرجان تجليد النحاس، انه اليوم الأخير في المهرجان. لكنه ليس كما في الماضي. إذ لم يتبق من شعبنا سوانا نحن وأنت يا بنجوس“ وانطلق الفرس..

كان كالسباح في بحر من الهواء المضغوط، وجدا نفسيهما عند البحيرة مرة أخرى. أشارت إلى قباب لم يلحظها قبلا:

”تلك قبور السلاطين الراحلين. أنها القبور المقدسة“ سبعة من الفتيات الأبقار يتحلقن حول أحد القبور. تقدمت كيرا منهن. إلى

شجرة تبعد قليلا. أخذت فأسا من إحدى الفتيات. هوت به على الشجرة بضربة واحدة، فاجتثتها.

بعض النساء المتقدمات في السن، كن قد انهين حفر الأرض في سبع مواضع، أخذت كيرا من الفتاة التي اقتربت منها حفنة من الدخن. بذرتة في الحفر السبع.

ثم مضت تصحب البنجوس إلى ضفة البحيرة، جلسا. أتى لهما بطعام. أخبرته أنها أحشاء كبش مخصي، تركت لتتعفن ثم خلطت مع الشطة والسمن.

“أنها لك منذ العام الماضي“

قالت وهي تأخذ من الأحشاء وتمد له. تردد قليلا ثم مد يده.

“لو لم تأكلها ستقتلك هذه الفتاة المسلحة“

أشارت بيدها خلفه، حيث كانت تقف فتاة مسلحة بسيف لامع صقيل. “في وقت بعيد. بعد أن نزل البرق على ضريح دالي، والتف حوله ومضى به إلى غياهب السماء. في ذلك الوقت، كان شعبنا يقدم ضحية آدمية في احتفال كندنقا (الوليمة)، كان يبحث عن صبيين تؤم، يقدمان قربانا في الكندنقا. الآن نكتفي بأحشاء الكبش المخصي“
انهيا طعامهما وامتنيا الفرس مرة أخرى..

بهذا الطريق مر عبد الكريم مع جحافله.. استطاعت عشيرة كلييا الحاكمة في (دار زغاوة)، أن تحصل على السلطة عن طريق عبد الكريم، أحد يتيمين أخذتهما أمهما إلى الفاشر.

أخذه السلطان محمد الفضل واعتنى به. وعندما بلغ سن الرشد أعطاه قيادة بعض الفرسان، في حملة ضد العريقات. طرد عبد الكريم العريقات البدو من آبار كارنوي في دار قلا..

”إذن كان القصر يستخدم أيضا لحفظ الزعماء المحتملين؟ أو المتنافسين من العشيرة احتياطيا؛ كواعدين لهم مستقبل أو كرهائن“

”ولهذا أنت هنا الآن“

”من أنت؟“

”كيرا.. كيرا لنقي.. روح اياباسي زمزم.. تلك التي أعدمت بعد مقتل أبو القاسم أخوها، في أحد أكثر الحوادث غموضا في تاريخ السلطنة!!“

ثم نظرت إليه بعمق:

”أيا باسي (الأخت الكبيرة) مثل أيا كوري (الأم القوية) لا تموت! تظل روحها هائمة، انها تراني الآن أتجول على رأس المسلحات، احكم ظلام الجبل“

”إلى متى؟“

”إنني انتظر القادم من ظهر الوزير اومي زكريا لاقدر. إنها علامة دالي.. لقد اختفى بتأمر شطة على طرد الفقير محمد البلاوي إلى كردفان.. هرب.. ومنذها ذابت الكيرا في عموم الشعب.. لم يبق سوانا نحن فوووكوه، سكان الجبل“

”لماذا تأمرت على الفقير البلاوي؟“

”الارض.. أنها الأرض. وطن الكيرا. أراد الفقير أن يصبح سيماكورا (السيد الكبير) أراد أن يكون له سيماقانا (أسياد صغار) يرأسهم، و إقطاعيات وسلطات“

”أوليس من حقه؟“

التفتت بحدة:

”السلطة من حق فوووكوة فقط. انه وطن الكيرا“ نشر السلطان

الأول الإسلام تدريجيا في إمبراطوريته جنوبا؛ بأن أرسل إلى ملك كل
جبل مخطرا إياه:

”أسلم والا سأقتلك“

أمام هذا الاختيار (فر) بعض الناس جنوبا، وصاروا (فرتيت)
تاركين أجزاء واسعة من أرض الوادي، غير مأهولة حتى اليوم!
مما اضطر السلاطين لاحقا، لإحضار أناس، من الشرق والغرب
والجنوب، ليسكنوا الأرض الخالية ويعمروها..

”كنا نحن لحظتها قد انسحبنا إلى أعماق جبل نامي.. لم نفر
لنصبح ”فرتيت“. لقد خرج أسلافنا من قلب ظلام الجبل و إلى الجبل
عدنا نحن..

كنا عندما تشتد الغارات لاصطياد الرقيق، تحت حماية الجلابة،
نخرج نحاربهم بليل، دون أن يرانا أحد“

قال الكومندان صالح البنجوس، موجها حديثه لعادل:
 ”فوجيء السلطان بالخليفة يعتقله وحاشيته، بعد أن فشلت
 مفاوضاتهما حول وضع دار فونقرو“

كان الخليفة قد كومهم جميعا في احد البيوت الحجرية، واضعا
 على محيط البيت، عشرين من حرسه الشخصي. كان شاو شرور هو
 الشاب الحدث الوحيد، بين أفراد الحاشية المهيبة.

قال السلطان:

”لم أتوقع أن يعتقلنا هذا الدرويش، دون أن يراعي حرمتنا ونحن
 ضيوفه“

فرد شاو الشاب الحدث المتأثر بكوارث البحر:

”تجري في عروقه مياه البحر“

تساءل الشرتاي شطة شرورو مستفهما:

”ماذا تعني؟!“

”أعني أننا اعتدنا على الوادي؛ والبحر ليس مألوفنا لنا“ ولم يبد
 على احدهم انه فهم شيئا.

كان اومي على عكسهم، لا شيء يؤرقه مثل الحنين إلى كيرا لنقي.
 كان يشعر أن الاعتقال لن يطول، و أنه لا محالة خارج للشمس
 والوادي و القمبيل.

فقط الحنين لكيرا، السمراء الفارعة مثل القمبيل، الناعمة كرمال
 الوادي. لكأن كل شيء يراه الآن في ذلك اليوم الأخير، وهو يخرج في

ركاب السلطان. قالت:

”لا تمضي معهم“

”لابد أن اذهب“

”إن كنت تخشى الشرتاي شطة. سيتفهم الأمر“

”لكنني لن أنفهمه“

كانا يتحاوران وسط جبراقة الدخن، لفهما الصمت. طفرت دمعتان من عيني كيرا، اقترب منها. مد لسانه المرترجف. احتضنته. خلعت أيقونة العاج، التي تتدلى من صدرها:

”النقوش التي عليها ستحميك من اللعنة“

وصمتت.

لحظتها لم يهتم. كان متوحدا في توجدا ته. لم يكن واثقا من عودته إليها. لم يكن واثقا من انه سيراه مرة أخرى. كان يخشى فقدانها، فالجلابة يتحينون الفرص، ليهاجموا على النساء. يحرقون القرى والزروع وينهبون الماشية. يأسرون النساء ويرسلونهن للبيع في أسواق الرقيق البعيدة!

كان اومي زكريا شاو يتلمس الأيقونة وهو يفكر في الهرب، حين استشعر مع الجميع، حركة غير عادية بالخارج، فتح الباب الحجري وقادهم أحد الحراس، برأس حربته إلى حيث الخليفة متجدعا كسلطان مهيب. ”ستخرجون معنا“

قال الخليفة، فسألوه:

”إلى أين؟!“

”إلى المعركة“

وهكذا هرب أثناء المعركة، وفقد الخليفة اثر السلطان وحاشيته.

أثناء هربه، كان قد ضل الطريق، وفوجيء بعد مسيرة أيام، انه يضي على نحو دائري، أعاده إلى أم درمان مرة أخرى. وهو الذي كان يظن انه ابتعد عنها كثيرا!

شق دروبها وحواريها العطنة، ودخل احدى الانديات، التي لم يفارقها بعد ذلك إلا بعد وقت طويل، وقد قرر العودة إلى بلده البعيدة، على مشارف تخوم الصحراء.

ظل شاو مختبئا عند كاك، رغم أن دولة الخليفة، كانت قد لفظت أنفاسها الأخيرة! ومن حين لآخر كانت تتتابه رغبة ممضة لاكتشاف هذه الأرض، التي يتصارع عليها الناس، فمضى مع من مضى للعمل في المشروع الزراعي الوليد، قبل أن يعود إلى بلده البعيدة، على خطى الحنين لكيرا!

لدى عودته وجد السلطان قد استطاع حسم المعارك على السلطة، واسترداد ملك آباءه وأجداده أخيرا. وتتويجا لانتصاراته الباهرة رغب في الزواج من أجمل فتاة بكر في دار فونقرو، فأرسل المراسيل الذين اجمعوا على جمال كيرا لنقي! وأنها المراد!

شورو شطة الذي كان قد بلغ من العمر عتبا، قال:

”ابا السلطان كيرا لأومي ذكريا“

”أومي وين دربو.. خليتها في دار صباح“

”مصيره بجي“

”شنو الرأي؟!“

”كيرا لاومي“

و أصر السلطان على الزواج من كيرا، التي كانت قد اختفت في

غموض ولم تظهر للعيان مرة أخرى! إلا لدى ظهور أو مي قادما من دار صباح، فاتهم باختطافها، فاختموا إلى أن تمكن من الهرب إلى البلدة الصحراوية، في سرية دون أن يترك أثرا يتمكن احدا من اقتفاءه!

كان السلطان قد أطاح برأس شرورو شطة، ما جعل عروش كل الشرتيات تهتز في عنف! وكان الإنجليز على أبواب دارفونقرو، يضعون اللمسات الأخيرة للهجوم الكبير.

حياة البنجوس خليط مدهش من الذكريات الحميمة، وفي اللحظات النادرة التي يعود فيها بذاكرته إلى الخلف، تطفو على مقدمة ذاكرته سعدية النقادية! التي عرفها أول حياته عندما انتقل بعد وفاة أمه تاجا إلى أم درمان مغلقا باب ذكرياته في البلدة النهرية.

أنسته سعدية النقادية كيرا لنقي، واحتوته أحضانها كما لم تحتويه، دارفونقرو من قبل. وكما لم تشرع له تلك الجبراة التي يلتقي فيها كيرا، عن حنينها أبدا! لم يبق له الآن، في وحدته المهيبة، سوى الحنين المحض، وأيقونة الكيرا التي أهدتها لأومي بنقوشها التي تعود لمئات السنين قبل أن يسكن الغرباء شعب الوادي في دارفونقرو، ويتناسلون كالنبات الطفيلي. لم يبق له الآن سوى حكايات الأسلاف الذين انصرموا انصرام الزمن. قال أومي ذكريا:

”هذه الأيقونة نقشت ببرق السماء، نقشها دالي ببرق السما“

لم تكن سعدية كنفادية المسالمة، بل من فتيات الججر اللائي يولدن هكذا فجأة، دون سابق إنذار. فيضطر دير الراهبات لتبنيهن. طوال حياتها في الدير كانت تشعر بشيء ما لم تقو على مقاومته في النهاية فهربت. نداء خفي شدها للهرب من دير القبط. فتعرف عليها البنجوس في ”كرش الفيل“ في احد الصباحات، وهو في طريقه إلى وحدته العسكرية.

وقتها كان شابا في عنفوانه، وهي في أوج هذا العنفوان كمرافقة
دون العشرين بعدة سنوات. كانت سعدية النقادية لحظة التقاها
رثة الثياب، مهدلة الشعر، شاحبة الوجه، يقذفها الصبية بالحجارة
والزجاج المكسر وهم يهتفون:

”العجرية، الحلبية، المجنونة“

طرد عنها الصبية وقادها إلى أحد الروايب، أكلا معا سمكا مشويا
في صمت، دون أن ينبث أحدهما للآخر بينت شفة.

في الصمت تعرفا على بعضهما، وفي الصمت أصبحا صنوين. كان
كل شيء بينهما يمضي في صمت. إلى أن أنجبت بكره الذي أخذه
بحر مدني الهدار، في ذات اللحظة التي احتفل فيها الإنجليز، بالعيد
الثلاثين لإسقاط دولة السلطان. وعندما اخذ البحر أبناء الخمسة
الآخرين تذكر اللعنة. وكيرا لنقي والجراكة وهما بين عيدان الدخن
يسافران في ذاكرة الأسلاف، يتوحدان مع الخصب والنار وجبل أب
كردوس خلفهما. يمد ساقيه وذراعيه محتضنا الأفق الرحيب. قرر إلا
يقدم طفلهما القادم للجنة!.. تغذى البحر بدمهم، كبدهم، وحرهم
الإحساس بالنجاح. وهكذا قررا مغادرة الجزيرة كلها إلى الخرطوم.
حينها كان المجلس الاستشاري للشمال الجديد يحتفل بيوبيله الذهبي،
منجزا آخر أعماله، يهيج الحنين إلى الإنجليز، الذين يشكون على
المغادرة مخلفين وراءهم الذكريات بحلوها ومرها، كفاتحين وغزاة
يغادرون دون استئذان مثلما جاءوا دون استئذان.

يجتزون أغاني الحسرة والأسف الطويل، والنداءات خلفهم تستعروا!..
وسعدية النقادية التي لا تعرف حتى اسم والديها توقفت عن
الإنجاب، فظلت الأبوة أحد الأحلام الكبيرة للكومندان بنجوس. الذي
لم يكن أمامه سوى إرخاء سمعه لتلك الأغنية المجروحة:

”لي في المسالمة غزال ..“ ..

وإطلاق العنان للذكريات التي غذى بها أومي زكريا وجدانه، ذاكرة الأسلاف، الوادي، المملكة التي خرجت من غياهب الجبل، لتنمو على الوديان. امتص البنجوس إذن حكايا آلاف السنين المنبثقة، من ذاكرة المكان والناس والأشياء.. كان البنجوس مدهشاً.. نهما للإطلاع كفأر قارض، أدهش نهمه عبده الخال وأصدقاءه، فصاروا مغرمين بهذا العالم الذي يشعرون بانتمائهم إليه، في الصميم. فنشأ بين الخال والبنجوس، نوع غريب من العلاقة، تجاوز علاقة الأبوة والبنوة، ومضى يضرب عميقا في جذور الذاكرة المنفية، حتى لكأن ذاكرتهما، توحدتا في ذاكرة واحدة، أتخمت بالقمبيل وكيرا الجميلة ورهد الخيل. نشأ عبده الخال حادا مشاغبا وحاسما، حتى أطلق عليه أهل الحي (البنجوس الصغير) كان ذكيا وشجاعا لأقصى حد.

لم تكد السنوات الأولى من الاستقلال، تمضي حتى كان البنجوس وحيدا، يموت سعديّة النقادية، يعاني فراغا قاسيا وحزنا ممضا..

حتى تلك الأغنية المجروحة لم يعد يسمعا، إلا عندما يشيله الحنين إلى قبر سعديّة، يقرأ الفاتحة على روحها ويصلي، ويدعو لها بحسن العشرة مع الملائكة الكروبيين، ووجهه ممتلئ بالدمع يفيض بأشواق لا حصر لها، فيتمنى لو كان احد الغلمان المخلدون!

ولم يترك عادة زيارة قبرها، إلا بعد أن تم نقله إلى صعيد النهر الأزرق، حيث فاجأته حليلة فتاة المابان الجميلة.

كانت حليلة فريدة في تكوينها بلامحها الهادئة، وجسمها المربعوع، والصفح والسلام اللذان يكادان يقفزان من عينيها.

علاقتها بالطبيعة معقدة، وللحجر في نفسها قداسة ورثتها عن أسلافها المابان.

في ذلك الصباح البعيد أخرجت الأبقار، من حظيرتها، وهي ترنو إلى السماء بتبجيل! قال والدها (آجا) وهو يصلح من وضع الإكسسوارات على جسده:

”هي حليلة الليلة مطر ينزل. رجعي بقر“

سوت حليلة من الحبول والخلاخيل الفضية والنحاسية على قدميها، ومضت دون أن تأبه لوعده المطر المقدس.

كان آجا والد حليلة شخصية اجتماعية مميزة، ينظر إليه الجميع بتقدير واحترام كبيرين. فعدد بناته الكبير، يعني أن ثمة واجبات عديدة ملقاة على عاتق الخطاب، بدء بالمشاركة في الزراعة، وانتهاء بتكاليف الحياة اليومية..

قالت (أم قن) والدة حليلة، وهي تلوح بيديها من بعيد: ”هي حليلة. مطر كان جا، شوفي مكان“

مضت حليلة وهي تفكر كعادتها بالمستقبل المجهول في هذا المكان، باو (عاصمة الانقسنا)، أنستمر بها الحياة هكذا خلف الأبقار، والرقص في المواسم والمناسبات، على إيقاع (الجالك) وإخماد تلك الثورات العارمة، التي يفيض بها جسدها بين أحضان أي شاب، من شبان القبيلة. أم ستتغير هذه الحياة المريرة! كان ما يقلقها هو ما تسمعه من أحاديث، عن تلك المدن النهرية البعيدة أسفل مجرى النهر، وحيث يلتقي مع نهر آخر. قالوا انه ابيض (كما سمعت) وعادات الناس وأزيائهم.

تأوهت وعلى خاطر يطفو حديث جوفان العجوز: ”آخر الزمان ناس البحر يكسروا الانقسنا، ويحفروا الأرض، مثلما تحفر القبور. يدلقون المريسة حتى يلامس زبدها قمم الانقسنا.

وفي ذلك اليوم البعيد تغيم السماء ولا يهطل المطر المقدس.

ينكفيء الناس على أنفسهم، والبيوت التي على المنحدر، تصبح في السهل ودون حجر مقدس في باحة الدار..

آخر الزمان يحلف الناس بشيء لا علاقة له بالطبيعة. شيء لا يعرفونه معرفتهم للحجر“

في موسم الحصاد المنصرم؛ كانت الظواهر السالبة، التي فشلت الأسبار في السيطرة عليها، قد تحولت إلى ألحان.

والذين استهدفهم هذه الألحان الناقدة، لم يستطيعوا البقاء والمشاركة في ”الجالك“ و”الوازا“.. كان النقد قد نفاهم من الانقسنا.

لكن هذا العام، هطل المطر في مواعيد متأخرة عن مواعيده المعتادة. حليلة لم تبالي بتحذيرات والديها، فقد فقدت الثقة بهطول المطر. ففي السنوات الثلاث الماضية، لم يشهد المطر انتظاما، كما أن السنوات التي سبقت، كانت سنوات قحط أنهكت الأرض، وقتلت الأبقار، وتحول الانقسنا إلى رعاة ماجورين لعرب الكنانة، وبعضهم يم وجهه شطر الشركات الزراعية، في الدمازين. فيما فضل آخرين العمل المرهق في مناجم الذهب.

كانت حليلة تمضي بأبقارها إلى مسافات بعيدة، حتى لم يبق بينها وبين المناجم، سوى مسافة ضئيلة، وكانت تمنى النفس بلقيا الحبيب الغائب. وقد يحتك بها بعض الرعيان في طريق العودة، فتقضي معهم أوقاتا سعيدة.

طفلها الصغير من حبيبها الغائب يحبو الان، ووالدها يصر على استنزاف الحبيب الغائب، إلى أقصى حد، حتى يتمم الزواج بعدها..

طقوس الزواج في زمن القحط مكلفة. الجميع يعلم ذلك. فالطاعون التهم الأبقار، والجفاف أتى على ما تبقى منها. في زمن القحط تتخور جراح الناس أكثر فأكثر.

عندما يأتي الجفاف، يتغير لون المكان والناس، وتفوح رائحة الموت من كل شيء! تصبح الحياة قاسية والأحزان متنامية، لا تفتأ تتناسل لتحاصر حتى الأحجار والمواسم المقدسة، ويصير لطعم الجالك مذاق الحرمان، فلا يهتم كبار السن (بالأسبار)، للسيطرة على الظواهر السالبة، ولا تبالي الحكامات بتأليف الأغاني الحميمة. يصبح الغناء غناء الجفاف واليباس الذي تتخلله أمجاد الماضي، بانكساراته العظيمة وانتصاراته العظيمة، لمقاومة الحاضر المرير.

إذن لم تعد الانقسننا هي ذاتها. بسلاسلها الجبلية الممتدة، جنوب شرق النهر. ولم يعد ناسها مسلمين كما كانوا، بلونهم الداكن وقسماتهم الهادئة! الجفاف والطاعون التهما، حتى تلك الألوان الزاهية للخرز، الذي يزين جفير "الشواتيل" المعقوفة، والمسكن التي على المنحدرات، والتي فقدت رهبتها القديمة تلك، التي اتخذتها من انحدار السيل، أيام المطر الغزير.

والأحجار التي على باحات الدور في السهول، تخلفت عن مواضعها، وانشغل الناس بالبحث عن الذرة، والجذور لصنع طعام المريسة!

لكن ما كان يهجس الانقسننا، ليس الجفاف أو الطاعون وحده، بل جند الحكومة الذين يملأون السهول والمنحدرات، جالبين معهم قيما جديدة، وسلوكا جديدا، و معسكر الجيش الذي يتوسط المسافة، بين باو والمناجم في تلك السهول، التي يستخدمونها لرعي أبقارهم، أيام كانت السماء تمنح المطر المقدس بسخاء، والأرض لا تتوانى، في منح خيراتها الوفيرة. معسكر الجيش انتصب كالحجر المقدس، لتبدأ في النمو شتائم لم يعتادوا عليها، وقهر لم يأفوه، وتظهر بين المنحدرات الولادات الهجين. قال أحد الجوفانات: "أنهم يأخذون بناتنا دون أن يؤدوا واجبات الخطيب" قال أحد الشبان المتحمسين، ممن يعملون في معسكر الجيش:

”أنهم من أرض ليست أرضنا. عوايدهم ليست كعوايدنا. قائد المنطقة العسكرية منهم، من الإتيان يمثل هذه الأفعال“

كل الأحاديث أصبح محورها معسكر الجيش، تستبطن مشاعرنا تجاه أشياء مجهولة، لكنها مهيمنة، الجميع محاصرون بالطاعون والجفاف. ومعسكر الجيش، ما يجعل إيقاع الحياة في الانقسننا مرتبكا ومتداخلا..

مع الجيش أخذ يتسلل الرجال الملتحون، يدلقون المريسة على السهول، ويوقفون الجالك، ويتعاملون مع الأهالي المسلمين، بوحشية وفضاظة، وبعد أن يمضي الملتحين، يأتي عساكر الجيش. يبحثون عن المريسة المخبأة ليشرّبونها مع الأهالي. يضاجعون البنات. ويرقصون على إيقاع الجالك، حتى مطلع الفجر.

وهكذا لم تعد الانقسننا هي الانقسننا ذاتها، بصفتها المقيم، وغفرانها الحميم، الذي لا حد له! أيام كانت الحكايات عن المدن النهرية، عند منحدر نهر الانقسننا العميق، والنخيل محض أساطير يتداولها الجلابة، الذين يظهرون فجأة ويختفون مثلما ظهروا. يعبرون إلى الكرمك وقيسان، ويعودون مرة أخرى ليحكوا عن بني شنقول. ومجاعة سنة ستة، وكيف باع الخليفة الأرض والناس، لنجاشي الحبشة!

لم تعد هي ذاتها تلك الانقسننا، حين كان الناس يصحون باكرا، يصنعون الطعام، ويتوجهون إلى المزارع والمراعي، ليجمعوا في المساء على إيقاع الجالك والوازا، فيرقصون، وهم يتعثرون من السكر والتخمة بالجوغان والبابون، لم تعد هي تلك الأيام، التي كن فيها الحكامات، يدبجن القصائد الطوال، نقدا للشباب الطائش والفتيات الطائشات..

فمع الجفاف والطاعون ومعسكر الجيش، تغير وجه الحياة وصار طعمها مرا، و اعتملت في النفوس، أحاسيس القهر والقلق، والتوتر والترقب.

لماذا يعتقد الرجال الملتحين أن الحجر غير مقدس؟ والمطر كذلك!..
والمريسة حرام!.. لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟!

مع الجفاف والطاعون ومعسكر الجيش، لم يعد ثمة باعة متجولين،
بحميرهم، يتبادلون احمالهم بالماشية والزروع وقطع الذهب. التي
يجدها الأهالي في عروق الجبال، بين آن وآخر!

مع الجفاف والطاعون ومعسكر الجيش، فقدت الانقسننا براءتها،
تغيرت الحياة وصار لها طعما لم يعتادوه.. الشباب الذين يعملون في
منشآت الشركة الفرنسية، التي تنقب في الذهب، تغير سلوكهم وصاروا
لا يحترمون أحدا! لم تعد أفكارهم، هي ذاتها أفكار الانقسننا، أصبحوا
يضاجعون الفتيات كعساكر الجيش، دون أن يقوموا بواجبات الخطيب.
وأخذت الأرض تتقلص شيئا فشيئا، كما أنها لم تعد هي ذات
الأرض الخضراء. أرض الأسلاف، بسهولها وجبالها ومنحدراتها وأحجارها
ومطرها المقدس، وأبقارها الحميمة بخوارها الأليف.

في كل مرة كانت الحكومة تضع علامات الأحجار الإسمنتية،
فتنقص حواكير الأرض. تكتب على حجارتها الإسمنتية كلام لا يفهمه
احد. وعندما يقترب أحد من هذه اللافتات، يبرز له من مكن
ما، عسكري مشهرا سلاحه القاتل، مفجرا المواجد والأحزان، والأحقاد
القديمة كلها دفعة واحدة!

حتى الطيور الجبلية تفر من هذا السلاح. حتى الأرض تسود،
حين تلامسها طلقاته، حتى الصخر يتفتت في ألم حين تمسه. فكيف
بالانقسننا احتمال كل ذلك!?!.

الجفاف والطاعون ومعسكر الجيش، أتى بأمور كثيرة لم تكن في
الخطر أبدا، ولا يصدقها الأسلاف إذا رُدوا إلى الحياة مرة أخرى. فهم
لا يعرفون عن الانقسننا إلا أنها تلك الأرض الطيبة، التي تمنح أبقارهم

المراعي، ورجالهم الجوغان والجذور اللذيذة على إيقاع الجالك والوازا،
وبين أحضان الحبيبات ذوات الأجساد السمراء المتحفزة.

الآن هي انقسنا أخرى. بين كل حجر مقدس وآخر، يكمن
عسكري، وبين كل جبل وجبل ملتحي، يقول كلاما لا يفهمونه!.. يعبث
بمقدساتهم وينتهرهم بوحشية. على الرغم من مقابلتهم الودودة،
لكل من يطاء أرضهم.

الرجال الكبار لم يعودوا يهتمون لتلك الجلسات المهمة، التي
يتناولون فيها شئون الحياة الصغيرة والكبيرة، والشباب لم يعودوا
يهتمون بواجباتهم، انتشرت بينهم عادات لم يكونوا يعرفونها.

تحول بعضهم إلى لصوص، وأصبح بعضهم، عندما تحبل منه إحدى
الفتيات، لا يكمل طقوس الزواج. أصبحوا أشبه بأهل المدن النهرية
أسفل نهر الانقسنا.

يهربون من فعلهم، ولا يؤدون واجباتهم تجاه والد الفتاة. ولم يعد
- هكذا - عدد البنات شيئا مميزا يفخر به الأب كما في الماضي، لم
يعد يدلل على عظمته، أصبحن هما مقيما، وعبئا ثقيلًا!

مع الجفاف والطاعون ومعسكر الجيش؛ كانت السحنات تتغير
شيئا فشيئا، و أطفال مزيج يولدون. لم يعد للانقسنا ما يميزها. لو
جاء الأسلاف الان من مراقدهم التي ينامون فيها بسلام، لتعجبوا
وضربوا كفا بكف، دون أن يمزحوا! بإخراج ألسنتهم كما اعتادوا،
عندما يدهشهم أمر!..

مع الجفاف ومعسكر الجيش والشركة الفرنسية، صار كبار السن
لا يجتمعون إلا نادرا! أفكارهم مشلولة إزاء الخطر، الذي يستشعرونه.
يروون حكايات بعيدة، عن عُمد قاوموا الإيطاليين والفرنسيين و جند
الخليفة.

يروون حكايات لا حصر لها. ويम्मون وجوههم شطر عمدتهم بشوتاله المهيب، عله يحرك ساكنا. لكنه كان يبدو منغمسا في عالمه الجديد، الذي رسمه له أصدقاؤه من رجال الحكومة والشركة الفرنسية وضباط الجيش، والرجال الملتحين. إذ لا يفتأ يردد:

”ستصير الانقسنا مثل مدن النخيل.. اصبروا“

لكنه أبدا لم يجرؤ على تسفيه الحجر المقدس، أو المطر. وكذلك لم يجرؤ على إيقاف الرجال الملتحين، عن فظاظتهم مع الأهالي، ودلهم المريسة، طعامهم.. على الارض، والتفوه بتلك الكلمات، التي تسفه الحجر والمطر المقدسين.

لم يعد العمدة أبو شوتال، يناقش معهم الأمور ذات الأهمية في الانقسنا. كان مشغولا بزوجته الجديدة، التي جاء بها من أسفل النهر!

بعض الروايات التي يرويها عنه الشبان، تتحدث عن علاقته المريية بخواجية، لا يكاد يفارقها. وآخرون يؤكدون أنه ينوي الرحيل إلى مدن النخيل، حيث شيد هناك قصرا مهيبا، لينعم فيه بمكتنزاته من الذهب، بعد أن باع الانقسنا للملتحين ومعسكر الجيش، والشركة الفرنسية.

ثم لا تفتنا هذه الروايات، أن تسقط من الذاكرة، مثل أشياء كثيرة، بفعل حصار الطاعون والجفاف لأحلامهم وأفكارهم.

البحث عن الماء والطعام أصبح يشغل الانقسنا أكثر من أي شيء آخر.

لفت انتباه حليلة هذا العسكري الذي باتت تجده أمامها كل يوم، كأنه على موعد معها. كلما أتت تقود بقراتها في السهل الفسيح..

ويوما بعد آخر اعتادت تجاذب الحديث معه. ثم أخذهما ذلك النوع من الألفة، التي تنشأ بين الغرباء! كان البنجوس يحرص في كل لقاء بها، أن يحمل معه شيئاً من علب السردين والبسكويت.

وهكذا تعرفت حليلة على أشياء أخرى، غير الجذور والبابون والجوغان. ومثلما يحدث عادة في قصص الحب المبالغتة. شهدت الأبقار وطفلها الصغير، الذي سيصبح اسمه فيما بعد عبده الخال أو البنجوس الصغير، والسهول قصة حب متنامي.

ولم يعد لذلك الحبيب البعيد والد طفلها، الذي كانت تنتظره، مكان في قلبها الذي سلبه البنجوس الكومندان، فأمحى من ذاكرتها إلى الأبد!

شهدت السهول والأبقار تبني الكومندان بنجوس، لطفل حليلة، وحب عارم لم توثقه الروايات البائدة والسائدة، في ذاكرة الانقسن المتعرجة.

قبل وقت بعيد، وقبل أن يهرب البنجوس إلى دار صباح ويموت أومي واقفا من حسرته عليه. قبل ذلك الوقت بأيام قليلة. استرد الشايب أومي زكريا بصره، والركب يغيب عند الأفق الشرقي للوادي المهيب، الذي صمت فجأة، كأنه يصيح السمع لصلواته السرية كان كل شيء حول أومي زكريا ساكنا، حتى لكأنه يسمع صوت تنفس الموجودات، يخترقه ويؤكد فيه الإحساس بأنها المرة الأخيرة، التي يرى فيها البنجوس وتاجا.. كان واثقا من ذلك مذ رآه غسق البارحة، في الجبراقة مع كيرا لنقي. فقد حدثته العجوز كلتوم في ذلك الصباح البعيد، وهو يشتري القرع من السوق الأسبوعي:

”ولد شرورو البنجوس كان مشى دار صباح، تاني ما بجي“

كان قد رأى البنجوس في الجبراقة مع كيرا لنقي، وبعدها بأيام قليلة اختفى البنجوس واختفت الكيرا، قبلها عندما رأهما في الجبراقة، تذكر كلام شرورو شطة:

”ستحي اللعنة، التي لن يغسلها سوى أن تدفع ثمنها من دمك“

لم يأخذ أومي زكريا وقتها قصد شرورو، على محمل الجد، وإن أخذ يردد ذلك على مسامع البنجوس، والفكي أبكر كثيرا.

الان فقط يفهم كل شيء. في هذه اللحظات الفارقة في حياته كلها، التي تمر من أمام عينيه، قادمة من أغوار الماضي، وأعماق الذكريات، كان أومي زكريا يقلب بصره في الوادي الفسيح. وكيف كان يحلم منذ طفولته بعائلة كبيرة، يسد بها جوعه للأبوة، لذلك سرعان ما تخطى غرامه بالكيرا، وتزوج من الميرم.

شغفه بالأبوة دفعه لإغماد هراوته كيفما اتفق، مشهرا شهواته إلى أقصى الحدود السرية. لتولد كيرا من عشة زوجة الجلابي التاجر. دون أن يدرك هذه الحقيقة، إلا بعد وقت طويل، عندما رأت الميرم كلتوم عشة زوجة الجلابي في المنام، واخبرتها عن ابنتها وزوجها القليل في تقلي.

الأمر الذي دفع الميرم كلتوم بإجراء طقوس الاستعادة، فأرسلت روحا أقلقت منام كيرا، التي لم يهدأ لها بال، إلا بعد أن وصلت البلدة الصحراوية تدفعها قوة خفية دفعا.

عندما حدثته الميرم كلتوم، كان البنجوس يافعا وكان دون اعترافه بأبوته لها، شوك القتاد والاسبار والجند في دار الشرتاي!

نشأ أومي زكريا وحيدا كشجرة اندراب يتيمة عند قوز منفي. فتوحد مع الوادي والذكريات، يحاول الفكك من سبر عائلته الآيلة للانقراض.

عندما انتصر الإنجليز وسقطت السلطنة، ولم يتبق من شرورو سوى الذكرى البعيدة لشرتاي عظيم. لم يكن أحد يستطيع تذكر المكان، الذي دفن فيه جسده المفصول عن رأسه، كما أن الكيرا بعد هذه الأحداث الدامية، كانت قد اختفت فجأة كما ظهرت فجأة. عندما ظهرت للمرة الأولى، كانت أكثر جمالا وبهاء. كان سنوات عديدة لم تمر عليها. كان السنوات تتسرب من بشرتها الناعمة، دون أن تترك أثرا: كانت عشة زوجة الجلابي - هكذا، تشبه الكيرا شبيها عظيما، فولة وانقسمت نصفين، الخالق الناطق!..

لذلك كان أومي زكريا، يصر على مناداتها بكيرا ورتابة الوديان..

الخوارجا الإنجليزي بيتر ود الميرم كلتوم، تقرب منها بحميمية، إذ ركبه ألف عفريت:

”وصالها أو لتذهب الأحلام الإمبراطورية لجلالة الملكة إلى الجحيم“
كان ذكيا وأليفا. تعلم اللغة المحلية، بسرعة مدهشة، ودفع الميرم
كلتوم لتبنيه كابن لها، فكان عندما ينزل البلدة الصحراوية، يحضر
إلى بيتها ويناديها:

”الميرم مام“

قالوا له:

”سنطلقها من الجلاي ونزوجه لك لو أسلمت“

فاسلم.

قالوا له:

”لا يوجد مسلم أغلف، لابد أن نختنك“

فمد هراوته لآدمو الحداد كي يقطعها.

قالوا له:

”كيرا زوجة رجل، والنساء دونها كثير فاختر“

فاخذ بيتر يبكي ولم تفلح كلتوم في تهدئة خاطره المنكسر.

كان بيتر ودكلتوم وقتها قد أصبح جزء من أساطير الوادي، ينهض
في شغاف ذاكرته، خاصة عندما يشرب المريسة، وعينيه الساكسونيتين،
تتلمظان الوجوه المبتسمة له، في محبة وود.

هجر بيتر ود كلتوم المركز في الفاشر وترك عمله، وفشلت كل
محاولات المأمور ذو الأصول الإغريقية الغليظ دي كوستا، في أعادته
إلى رشده مرة أخرى. كان بيتر يتحول إلى قط أليف، عندما يأخذه
خدر البقو إلى مناخات لا رجعة منها، فيأكل الميرين ويشتم ندماءه
بالرطانة:

”نن دن سندي“ (كسمكم).

صار واحدا منهم. يخرج معهم إلى رحلات الصيد، ويأكل ما يأكلونه من كائنات الوديان العجيبة، بدء بالورل وانتهاء بأي شوك، والجقر وكديس الوادي. في الأيام الأولى، كان عندما يأتي من مركز المديرية، يستضيفه الشرتاي. وعندما اختلط بالناس وعرفهم وعرفوه، صار ينزل في ضيافة الميرم كلتوم. التي أفردت له ”كرنكا“ وتبنته، فلم يعد هناك من يجرو، على مناداته بغير:

”بيتر ود كلتوم“

كان بيتر مغرما بالوادي والناس والأشياء. يستمع إلى الحكايات باهتمام، ويسأل في فضول. وأكثر الأشياء التي كانت تؤرقه هي:

”أن يجد كتاب دالي المفقود“

حفظ بيتر سور من القرآن بقراءة ورش وانضم للتجانية، وأصبح يلبس المرقع والملون، إلى أن غادر الوادي، مقيدا في عربة المأمور، تحت حراسة عدد من الجنود الإنجليز، ذوي الشوارب الغليظة!

أعادوه إلى بلاده البعيدة، وزجوا به في مارستان الملكة، كأحد ضحايا الحروب الامبراطورية، في مغرب الشمس.

كان بيتر ود كلتوم شخصا صبورا طويل البال. اجتهد كثيرا في إقناع الأهالي، بإدخال أبنائهم المدارس، ليصبحوا أطباء ومهندسين، يعالجون المرضى، وينشئون السدود ويعمرون الوادي الفسيح.. كان يريد لهم أن يصبحوا إداريين يديرون بلادهم وفقا لنظام الإدارة الحديثة، لكن الفقرا الدراويش أخافوا الناس، وشككوا في دوافع ود كلتومة النصراني الكافر!

ونشروا الشائعات، فهرب الأهالي أبناءهم إلى غياهب جبل نامي، وأعماق وديان دارفونقرو، فلم ينجح بيتر ود كلتوم والشرتايات

والدماليج والعمد، الذين أعطوه أبناءهم عن طيب خاطر، ليحملهم معه إلى المدرسة الداخلية في عاصمة المديرية، وحاضرة السلطنة التي وُلّت.

في جلسات السمر كان الفقرا، وبقايا دراويش الخليفة يتهامون: “هي ترا ود كلتومة بخربي عيال عليكم. و دكلتومة.. ود العزبا قال يغشينا ترا”

وهكذا سيطر دراويش الخليفة والفقرا، على عقول الأهالي بالدعاية المضادة، التي كانت أقوى من محبتهم لبيتر ود كلتومة. حتى أن عشة زوجة الجلابي، كانت تروج للشائعات المضادة، مثلهم!

فبينما المأمور الإنجليزي في مروره على الوديان، ذات مرة. ملح عشة الجميلة وهي تحادث الناس عن، زيف الغرباء الخبثاء والدراويش، بذات القدر.

لكنها كانت تحدثهم عن دين أسلافهم وكتاب دالي الذي أخذه البرق: “كتاب المعرفة والقانون”

وأخذت تصر على أن النصارى لا يستطيعون ارغامهم على ترك أشياء يحبونها، وأنهم لن يستطيعوا طردهم إلا بسلاحهم: “التعليم”..

بدى كلام عشة متناقضا.. يستطيع الجميع تفسيره حسب اهواءهم.. شكك البعض في دوافع عشة، واتهمتها الميرم كلتوم صراحة، بأنها تنفذ مخططات زوجها الجلابي.

ولم يهتم آخرون بالتصدي لها، أو لدعاية الدراويش المتنامية، وابتلعت الوديان في مجاهيلها المزيد من الأطفال المهربين من المدرسة

الداخلية، إلى فيافي وغفار الوديان، في الليالي نصف المقمرة، التي تشي
بحزن عميق.

يصر الأهالي على سرد الحكايات المتوارثة، عمن أسرهم تجار الرقيق
المصريين والشوام، أولياء نعمة الزبير باشا رحمة!

كانوا يتحدثون عمن فقدوا، أو ماتوا أو أسروا. وعن حملات الغزو
التي كان يقوم بها، الجلابة أولاد البحر.

في كل صباح بعد أن هرب البنجوس والميرم، كانت كيرا تخرج من مخبأها، وتمضي إلى ذلك الرهد المتنائي عن الوادي والبلدة، تغني لنفسها وتنادي الحبيب البعيد، فيجيبها الصدى:

”أومي.. أومي.. دام.. دام..

داما ريفا دوي..

داما ريفا دوي...”

فترتج الوديان والفرقان، وتخر الأشجار، وتنفرج عن الرهد القطاطي والناس والخيول. تضرب النقاير، فتركض كيرا. تتوسط الحلقة وترقص معهم. ثم يختفي كل شيء فتعود أدراجها..

تأرق الأهالي من اختفاءات كيرا الغامضة، فتبعها أحدهم ذات غسق وردي، واتي راكضا يحكي لهم عما شاهده، فلم يصدقه أحد في البدء!

لكنهم عندما قلبوا الأمر في أفندتهم، التي تثوي فيها ذاكرة الأسلاف، تبعوه في الغسق التالي، ورأوا ما رآه!

منذها أصبح اختفاء كيرا لنقي كاملا، إذ لم يرها أحد بعد ذلك أبدا..

بعضهم يزعم أن الجن أخذها، فهذا الرهد حفظته حكايات الأسلاف، وما كان لأحد منهم أن يتصور وجوده لولا رأوه رؤية العين.. قالت الميرم كلتوم: ”طال الزمن أو قصر، زمن الأسلاف يعود.. ولم يهتم لقولها أحد.

رأى البنجوس نفسه يمتطي جوادا كميّتا، منجرّدا. توغل في سهيل الجواد وتوغله الصهيل، والجواد يشق بجسده الأملس، مياه البحيرة ويغيب في أعماقها، ويحاصره صوت عميق كالذوامة:

” ساو.. ساو صولونج..

صولنج.. ساو..“

يشعر البنجوس بالغرق في الصوت والماء، فيصحو مذعورا. ويجد نفسه مرة أخرى مبللا!.. عصر ثيابه وتذوق البلل. لم يكن عرقا، كان ماء حقيقيا. ماء له طعم المريسة. نوع غريب من المريسة.. أحس لحظتها أن رحلته الحقيقية ستبدأ عند البحيرة، وظل بانتظار تلك اللحظة لسنوات طويلة..

تنهد البنجوس تحت شجرة الجهنمية، وهو يسترد ذاكرته المهوِّمة في الماضي والذكريات، مختلّسا النظر إلى سلمى وعادل اللذان، انتحيا قرب شجرة النّيم الهرمة، ينتظران عبده الخال في قلق.

”ادخلوا انتظروه جوّه، لمياء موجودة“

كانا يقفان في مكانهما المعهود، ذلك البيت الناصية. عند طرف الشارع، الفاصل بين ديوم بحري والمزاد، المحازي ميدان المولد، قصاد الأمية تماما.

تحت شجرة النّيم الهرمة، اليتيمة، التي شهدت إعلان حبهما، كما شهدت بواكير نظراتهما، وابتساماتهما المتبادلة ولقاء اتهامهما الحميمة، كمرهقين يحبان لأول مرة، بعيدا بعيدا عن الكومندان، الذي يجلس كالمعتاد تحت شجرة ”المحنة“ وينسحب في كرسيه المهيب إلى ككر

بعيد، أقصى ذاكرته التي انهكتها الوقائع والأحداث والسنوات..
نادى عليهما، وهو يحاول أن يتجاذب معهما أطراف الحديث
كالمعتاد.. لم يستطع. لم تكن لديه رغبة في الحديث مع أحد.
كان هائم الملامح..
”عبده الخال يقول انه هكذا منذ فترة غائب عن هنا، وهو
هنا!“

”أخيرا عدت“

قالت كيرا، فرد عليها بصوت متهدج:

”لقد قلت من قبل: سأنتظرك وان طال الحنين“ وامتطيا الفرس الأبيض، الذي شق بهما عباب البحيرة في المرة الأولى، ليفترقا على مشارف المعسكر.. ”سأنتظرك وان طال الحنين“

منذها ولم يستطع أن يقرب زوجته حليلة أبدا. ظل الحنين العاصف لكيرا، نيرانا لم تقوى حليلة على إطفائها.

في كل لحظة يشعر بها أقرب منه إليه، من أي وقت مضى! ويعالجه الشعور الخفي باستمرار:

أن موعد لقاتهما قد حان..

”أخيرا عدت“

نأت شجرة الجهنمية العجوز.. نأت راوية.. نأت حليلة.. عبده الخال ولمياء.. نأى عادل في فراغ الماضي/ الحاضر.. نأت الذكريات والأخيلة.. و مغامرات الصبا والشيشة والنفس الطويل..

نأى كل شيء! فيما كان عبده الخال يستمع في صبر إلى صراخ ليمياء بوجهه:

”أريد الطلاق“

”لماذا؟!“

”لأنك دائما لست هنا.. لست معي! أنت في عالم يخصك وحدك، لا اشعر بوجودك، أشبه بالوهم!“

”كيف؟!“

”الكومندان معه حق“

”فيم؟!“

”ظل طيلة حياته يكره شيئين: الحكومة والمثقفين!“

”لم يقل لي ذلك“

”لأنه لا يحب إغضاب حليلة أمك“

نأى كل شيء وبقي فقط الانتماء لكل شيء هنا: الجغرافيا، الناس، الوديان، الجبال والغابات والقيزان وأحاديث الأهالي وسردياتهم، التي لا تزال تدور حول رهد الخيل.

وفيما هما يتشاجران، كان البنجوس غارقا في ذاك المساء البعيد، المعبأ بنكهة القمبيل، وضوح صندل الردوم والريحان البري، تسحب الكومندان.. دخل إحدى القطاطي المزروبة بالقنا والشوك، وتبع الميرم كلتوم، دليلته دون أن ينبس ببنت شفة!

ابتلع الأفق الغربي الشمس، وفي اللحظة الفاصلة للمغيب تبتدت كيرا..

”أخيرا عدت“

كان الكومندان السبعيني يعود شابا من جديد، في شرخ الصبا.. شرب البقو ورقص عاريا، بفتوة عشرات السنوات، حتى غاب في إيقاع الطبول وأنغام ربابته المجهولة، فوجد نفسه متكئا على صدر الكيرا المتحفز..

دلكت جسده العاري، المتمدد كجبل اب كردوس جذبته، نهضا أمام الجبل السامق في العرى، كأنه يحتوي الكون كله، ودلفا إلى قلب الجبل، حيث بدأت مملكة الكيرا تتشكل من جديد

القسم الثاني

عام عبده الخال

ينتقل عبده الخال بقلمه من نقطة لأخرى، على الخريطة المفرودة أمامهما، ناهبا بقلمه الطريق في إقليم السافانا، وهو يشير لعادل:

”الرمال، الشجيرات القصيرة المتفرقة، الأعشاب الكالحة و أشجار التبلدي، التي تمد أغصانها باتجاه البرق، الذي يلوح في أفق السماء..“
يقاطعه عادل متسائلا:

”البرق العبادي؟“

فتنجرف خواطره، سريعة، متقطعة كالبرق العبادي..

مع البرق العبادي تتشتت الذاكرة، تنساب الصور مختلطة، والمشاهد مبعثرة، فمع البرق العبادي، يبدأ كل شيء في مسيرة التحولات أو التخيلات، التي بواسطتها يحاولان التحرر، والخلاص من هواجس ظلت تلاحقهما، لوقت طويل!

هواجس ليست واضحة، حتى له هو عبده الخال بالذات، هواجس دنت منهم جميعا، متسحبة رويدا رويدا، إلى أن أغلقتهم داخلها..

فلم يعودوا يرون سوى أخيلة مشتركة، تنبثق من ذاكرة الكومندان. قوامها المدن البائدة، وجرح الحبيب! الشوارع التي وطأتها أقدامهم؛ الدروب، الناس والبرق العبادي.

إحساس غريب ينبثق من هذا البرق، يتغلغل في أعصابهم جميعا، ويدفع بعضهم إلى الانتحار، وبعضهم الآخر للجنون، وبعضهم للهجر والابتعاد، أو الاختفاء الغامض.

كانوا جميعا يشعرون أن البرق العبادي، هو لمع خاطف لروح الكومندان التي حبستهم، وأنه يخلخل كل شيء فيهم، حتى لا يعودون هم؛ هم ذاتهم!

قالت سارة:

”يتسلل الكومندان لعنات، مخبأة في قمام مرصودة منذ آلاف السنين، يرمي لعنته في فضاء المدينة، التي تمضي لسهرتها للتو، ويمضي في صمت الغسق التالي، و السكون العميق، الذي تتبدى عنه الذاكرة السرية، مستنزفة بمحملاتها، مشاعري الحبيسة، فانداح كظلال غائرة في البعيد: محض انثى تحت وطء فحلها البنجوس..“...

نعم جلس الكومندان قربي. جاء صوته عميقا، عميقا كتهيدة تخرج من أغوار حلم جميل. كأهة عذبة ييحها وتر مكتوم، بذكرى حميمة لعاشقين اصطليا بنار الوجد، و تجمدا في لحظة واحدة، بين نقر الوتر وآهاته الشجية!

كان الكومندان يتماهى في كل شيء، في فضاء الغرفة بأنفه ذاته، الذي يخترق أحلامي في النوم واليقظة!

قبل قدومه بوقت طويل كنت أراه. وفي تلك الظهيرة قبل أن يجيء رأيته وأنا عند باب الحمام.

شعور غريب بين الصحو والنوم انتابني لحظتها، عندما تعريت للماء.

كنت كأني اكتشف جسدي للمرة الأولى، موحشا، يابسا، موغلا في العذاب..

استعدت واستغفرت وتحصنت. لكن اخترق الكومندان التعاويذ والحصون، سال مع الماء، وبللني. تسلل عميقا عميقا! كنت أتوه

وأغوص في خدر متقطعة الأنفاس. وقلبي ينتفض في عنف. لم اعرف كم مر علي من الوقت، وأنا على هذه الحالة من الغفران والصفح! جففت نفسي. ارتديت ملابسني. ودخلت غرفتي. كنت كالمنومة مغناطيسيا! وأنا أرى الكومندان يطوقني، يحاصرني. تناثرت ثيابنا في فضاء الغرفة، وتماهت في أخيلتها، وبدى لي الكومندان شخصا آخر، فتيا.. يحمل جسد الكومندان!

شخص اعرفه ولا اعرفه! غبت فيه تعتصرني عضلاته، تخدرني رائحة عرقه!

كنت مأخوذة دون إرادة.. دون وعي.. دون هوية.. دون تاريخ.. أو جغرافيا، كالحلم. الزنخ، الحمى، الحكايا، رغوة الصابون.. وحدي في المكان المبلبل بوهم - ربما - لذيذ، يفرض سطوته على الألم العذب، الذي كان يسري شفيفا، في عروقي. ولم يكن للكومندان أثر! كيف حدث ذلك: لا أدري! هل حدث فعلا: لا ادري!

تأوهت وأنا أحاول تجميع نفسي كنت مأخوذة. تحصنت مرة أخرى واستعدت واستغفرت، وأطلقت بخور "اللبان الضكر" لطرد الشياطين!

ومع انعقاد الدخان وتسله خلايا الغرفة، بدأت الأخيلة والحلم والذكريات تخرج من ذاكرة الجدار، لتغادر الغرفة، مع دخان اللبان الضكر!

كان وعيي قد عاد، حاولت أن أتأكد مرة أخرى أن الأمر لا يتعدى أضغاث الأحلام، لكن وجدت أيقونة الكومندان معلقة على عنقي!

اكتظت الغرفة عن آخرها بالأصدقاء والأشياء: أكياس ”التمباك“
 رقعة الشطرنج، العود، جهاز التليفزيون، والأصوات المخترقة للنوافذ،
 المطللة على الشارع، الذي تحجبه شجرة الجهنمية العجوز..

كل شيء يؤدي دوره المرسوم بتناسق تام، مرتب حتى في فوضاه!
 وهو سعيد تماما كما ينبغي له كعبده الخال!

مثل كل خميس، عندما يتوافد أصدقاؤه، تصحبهم مؤامراتهم
 الصغيرة، و جرائرهم الكبيرة!.. أكاذيبهم الملونة.. وأحلامهم، التي تبعث
 في نفسه الإحساس بالصفح والرضا!

يحيط عادل بنظرة عميقة، متعاطفة .. حانية، بعد أن عاش حياة
 مضطربة، اكتشف في أحد منعطفاتها الحرجة، انه ابن غير شرعي
 للبنجوس صالح الكومندان! فوسم ذلك وجدانه بجراح عميقة..

إذ لم يكن يتصور أن أمه راوية، قد أنجبتة كثمرة لحب عابر!

وكان كلما تناوشته الخواطر، يقف تفانيها في تربيته، حدا قاطعا
 كالسيف، يعيد له الهدوء والسكينة اللذين، ظل يطمح إليهما، فينجح
 أحيانا و يفشل في مرات أخرى!

حبه العميق لها، ذكريات الطفولة، رحلتها المشتركة، وحدهما
 كالغرباء. كل شيء!.. جعل الأمر كسحابة عابرة، أو ظن أنها عابرة،
 تمر ببلاد أنهكها طول الانتظار للخرائف غير المثمرة، أو ربما أغرقتها
 الخرائف العاصفة!

بحث عن الكومندان طويلا حتى وجده، وعندما وجده لم يجرؤ
 على أن يعرفه بنفسه، كان قد فقد الرغبة في التعرف إليه، كابن

لراوية التي تعذبت كثيرا، وتأملت طويلا وهي تنتقل من مدينة لأخرى، ترعاه كذكرى حميمة، لحبيب بعيد!

اكتفى عادل بإنشاء علاقة غامضة بالكومندان: لا يدري هل يحبه أو يكرهه!..أهو شعور بالحميمية، أم الخبث والمكر، ريثما ينقض عليه في لحظة حاسمة؟!

نعم ينقض على والده؛ الذي لا يخطر بباله أبدا، أن هذا الفتى الفارع، الذي تقترب ملامحه من أومي زكريا كثيرا. ما هو إلا الابن، الذي لطالما حلم به، في حياته المديدة!

عادل ابن راوية، حبيته النائبة، التي علق بها ذات غسق بعيد، عند ”العطبراوي“ فأنهد الجسر العتيق للنهر الموسمي، قصير الحياة، وهدم ”التساب“ المدينة؛ الغارقة في بؤسها العريق! ”سأخبر الكومندان أنك ابنه“

”إياك أن تفعل يا عبده، أنا وأنت والمرحومة راوية فقط من يحق لهم إخباره، وقد مضت المرحومة..“...

ولد عادل من راوية؛ مثلما ولد أومي زكريا من شرورو شطة.. من كيرا، عندما دخل بها عند جبراقة الدخن، وكذكر النحل رحل في الأبدية، لتلحق به هي الأخرى، ريثما تضع بذرتة! أنجبت أومي وفارقت الحياة. كانت قصتها ككل قصص العشق السري، يفاجأ بها الناس بعد أن تكون قد تجذرت في الطبيعة!

”إلا تصدقين بعد إنني احبك؟!“

كانت عائشة تقسو عليه في البداية، تتحدث عن أوشي بتشفي
فركع عند قدميها، ومنذها بدأت تلين.

ابتلع غصة اعترضت حلقة، واختلطت في جوانحه حرق شتى:

”أريد أن أرى وجهك.. ارفعي هذا النقاب!“

”مستحيل!“

كان عادل يحب عائشة بجنون. مثلما في الروايات التي سادت ثم
بادت. هداً الكر والفر، ومع الحصار تجددت الذكريات، مثلت الأحزان،
فحكّت لأول مرة عن طفولتها الغريبة، في البلاد الغريبة، التي تتنفس
النفط وتأكل النفط، وتشرب النفط، وتتوسده في قيلولات الظهيرة!
حكّت عائشة عن غربتها؛ وعن آلهة قاسية تعاقب النساء
بالنيران العظيمة، وتصب الإنك على فتحات الرجال. فشدت
على حجابها أكثر فأكثر، وهي تستغفر ”ابن عثيمين!“
كانت معبأة تستشعر الخطر الدائم، بعد أن استنفرت كاسيتات ابن
عثيمين مشاعرها، واستنزفت عواطفها المجروحة. فلم تعد ترى شيئاً إلا
من خلال الأبيض أو الأسود - الكفر/ الإيمان - الحلال/ الحرام - الهي/ الهو..
كان حالها أشبه بالمبالغة الهذيانة للتهويل، الذي أشاعته ”غرة
العيون ومفرح القلب المحزون!“ وهي تختط أوسع حرب أخلاقية
نفسية، عرفتها قرون الظلام!

ومع الحصار استمرت تحكي.. وتحكي عن كيف قطف صديق
والدها ورده جرحها، عندما فتحت له الباب، متصورة انه احد

والديها، نسي شيئاً وعاد من الطريق إلى العمل ليأخذه..
دخل بسرعة فائقة أجمتها. لم تستطع أن تصرخ. الرعب والخوف
المميت، لطفلة تجاوزت العاشرة من عمرها بعامين فقط!
الرعب والخوف، جعلها لا تدرك حقيقة ما حدث، إلا بعد مرور
وقت طويل!

مع الحصار تكشف عائشة عن عوالم غريبة؛ بقدر ما نأت عنها؛
اقتربت منه، وبقدر ما اقتربت نأت. ولامس الكر والفر، لفرس منفي
في الذاكرة، وجواد يخب على تخوم الربع الخالي، دنو سلمى ببطء
كسراب الصحراء!

تسحبت إلى عامله، مفتونة بغموضه الغائر، سلمى الرائعة، الخالية
من عقد الغربة وجراحات الاغتصاب، بسيطة وعذبة. واضحة ومباشرة
في مشاعرها، تريد أن تحب وتحب.. أن تتزوج وتنجب أطفالا كالورد،
تسقيهم ماء الحياة في اطمئنان. ينشأون في مملكتها الآمنة، بهدوء،
دون أن يلاحظهم أحد، فيصيبهم ”بالعين“.. وتردد في رهبة:

”يا عين يا عنية، يا كافرة يا نصرانية، قهرتك بالقاهر والنبى
الطاهر“..

اطفال.. يكبرون في الصفح والغفران، كأبناء لأحلام عادية جدا،
وأبوين عاديين جدا، لم تطرق الأزمات حياتهم منذ عهد بعيد!
وكان عادل منقسما. يشك في قدرته على صناعة مثل هذه الحياة مع
سلمى، وعائشة تقلق باله، وتدفعه للمضي أبعد فأبعد.. يعد النجوم،
ويغني:

”سهران بهاتي.. و الليل ما بنومو أنا حارس نجومو“..

البون بينه وسلمى شاسعا شسوع الجبل والظلمات.

عالم لا نهاية له، يأخذه بعيدا، بعيدا.. وكلاهما يشعر أن الأيام تخبئ له في رحمها، حقيقته التي تطارده، قدره الذي يهرب منه إليه، لا يلوي على شيء! خوفه.. حزنه.. اغترابه في الهجر! حلقت معه سلمى خارج أسوار الأساطير والحكايا، دفنت الكهف السحري، لحكايا الكومندان البنجوس، لتبتلعها غياهب الأصدقاء، الذين يتحلقون كل خميس، في غرفة عبده الخال. لتنقشها في كهف آخر مدفون في لا مكان ولا زمان.. تجلس فيه إلى الأسلاف، تأخذ عنهم أسرار المراصد والطلاسم، لتفك رموز عادل، وتمارس السحر على نقوشه الغامضة!..

فيمضي هو الآخر معها، يشقان الدروب الضيقة، تحاصره بإغرائها، يمسك بيدها البضة، فلا تبدي احتجاجا. يحتضنها. فلا تمنع.. وهكذا تصحو رغباته المدفونة، وتتفجر تورماته الأزلية، فيسافر معها سنوات لا يدري أحد عددها..

كانت سلمى سليلة الحسب والنسب، وأخر البرجوازيات المنهارة، في دولة بني لكيلك الجنجويدي!

كافتيريا أتني بأضوائها الهادئة، تأخذه في المسارات المتعرجة، التي تتبدى عنها عيني عائشة، التي تجلس قبالته في صمت. يجلس إليها مثلما جلس صولمنج يرقب شبونة "مهدودا". في ذلك المساء البعيد.. يغوص عادل في عالمه، بعيدا عن ضجيج الافندية والمتقنين، الذين يجالسون أنصاف الحبيبات.. أشباه الجواري!

يختلفون حول الأمور التافهة والصغيرة. فيوغل عادل في صمت عائشة، التي تحدق فيه، في صمته المهيب. تتسلل صوت الكومندان البنجوس وهو يحكي عن خراب "ساورا" يحقنها بألم أزلي، يسحبها إلى كهوف "ساورا" ويتركها تمضي مع الفتيات الملكيات. يكتشفن أسرار الجسد! تعصرها الحمى وتأتي إلى صولمنج في الأمسيات الشاحبة!

كان الكومندان البنجوس، يأخذهم واحدا تلو الآخر، ليرمي بهم في أحضان لحظة منسية، تحاصرهم كشبكة ليس منها فكاك. لحظة يتعاطونها كالأفيون، تسري في الدّم. يشعرون بالحاجة إلى جرعاتها دائما، لتهدى صبوا تهم وتشعلها في آن..

قالت عائشة تتسلل الصمت، الذي خيم على أتني فجأة:

”ألا تمل الجلوس هنا. أنا لا أحب هذه الكافتيريا. الوجوه بائسة، تجعلني أشعر بالموت!“

”هيا بنا“

نهض دون أن يعلق، مضيا يعبران إلى شارع النيل.. كانا خائفين من تلك الكلاب البوليسية، التي تنطلق فجأة من مكان ما، لتضع العشاق في تلك اللحظة، التي شعر بها ”ساو“ و”نيرديس“ عندما دهمتها نبتة.. شارع النيل يخرج من قلب عادل، يتشكل من شريانه التاجي، يمتد في طرقات المدينة الزاوية، وهي تعاني النزاع الأخير، في مهابة جليلة. شارع النيل يمتد في الأوردة، يرحل بعيدا في الفضاء الرحب، متكورا على نباح الكلاب البوليسية، تأوهات أرامل الحرب الأهلية وقتلى الفوضى وشهداء الاستبداد.

متكورا على العوانس اللاتي فقدن أحبابهن في حروب لا تنتهي، ومهاجر تبتلع الذين لفظهم الأهل والأحباب، وخذلتهم البلاد الكبيرة! وقع خطوات عادل وعائشة الذين ابتعدا كثيرا في شارع النيل، يتكور هو الآخر على قلق الخيانات الزوجية، وتأزمات العشاق الذين ضلوا الطريق إلى حبيباتهم.

يتكور شارع النيل على أحزان عائشة وعادل، وهما يعبران إلى الاتجاه الآخر من المدينة.. يعبران الجسر العتيق!

كانا يمسيان بتؤدة وحميمية، تسم القلب.

كانا يمسيان على احاسيسهما الملتاعة، و اصابعهما المتشابكة، تشتعل في الأسرار الخفية، وتجوس في الغياب الحضور، لتقترب مؤخرة المدينة، خلف الجسر.

“المدينة أثنى.. كل المدن نساء“

قال عادل فتساءلت عائشة:

“لماذا لم يطلق علينا مُلاك الحقيقة كلابهم؟“

انه هذا الحجاب الذي ترتدينه. أنهم لا يصدقون أن للمحجبات قلوب مثل الأخريات“

“لا يصدقون ما يرونه، بينما يصدقون ما لا يرونه!“

مؤخرة المدينة الشاسعة، تتمدد على شريط النيل! المدينة تغتسل الآن كسابا الفارعة، من ذكريات آخر لياليها البهيجة مع ”سور نق“.. تنفض عائشة الغبار عن حذائها الأسود، بمنديل الورق المعطر، وتسوي من عباءتها الفضية..

ترتب الحجاب على وجهها جيدا، لتكمل الهدام و يطرق عادل الباب. يطل وجه الكومندان مبادرا:

“لا تسألاني عن عبده الخال. فهو ليس هنا“

يدخلان غرفة عبده الخال. بلمحات خاطفة يكرر الكومندان النظر إلى وجه عائشة. كانت تشعر بذلك وتحس بنظراته تخرق الحجاب.. غاص عادل في بريق بصرها المختبئ، واللمحة الخاطفة للبنجوس. لحظتها كانت راوية أمه تحتويه، بأحزانها وحرمانها.. راوية الصبية، التي أحبت الكومندان في الهجر، ولم تدرك أنها تحمل بذرتة في أحشائها، إلا في الغربة والحنين والترحال!

قطع الكومندان الصمت، الذي خيم على الغرفة:

”لم أرى صديقكم نواي منذ فترة. أين هو؟!“

”اعتاد أن يختفي بين آن وآخر، فهو أقرب إلى الوحدة منه إلى الجماعة“

”إنها الحرب.. مسكين نواي“

”كان قاب قوسين أو أدنى من الموت أكثر من مرة. نجا من عدة محاولات اغتيال بأعجوبة. هرب وتشرذ. سحر تبذل جهدها لإعادته إلى سابق عهده“

تدخلت عائشة التي كانت صامته طوال الوقت:

”يدهشني صمود علاقتهما كل هذا الوقت. منذ ترك نواي التنظيم المدني، واختار المقاومة المسلحة!“

”إنها علاقة تاريخية“

التفت عادل إلى البنجوس:

”ألا تعرف أين ذهب عبده الخال؟“

”خرج مع سوزي. كانت قد غشيته“

تهامسا ولم يلبثا أن خرجا:

”لابد إنها متعاركة مع مناوة؟!“

وفيما كانوا يتساءلون، كانت سوزي وقتها، تتوغل أكثر فأكثر، في خواطر عبده الخال المتلاشية، لتكشف خواطرها مكانها، فينسب صوتها متوترا:

”لم اعد افهمه!“

تدخلت سحر:

”أنه شخصية سيكوباتية“

”أنا لا اسمح لك“

ران صمت عميق على ثلاثتهم. نهضت سوزي غاضبة، وهي ترمي سحر بنظرة شذرة ومضت، تركتها تجوس وحدها في ذاكرة الخال، التي كانت تتفحص حياة مناوة قريبة الشبه من حياة نواي، كنازحين من أوار الحرب، تمت إعادة انتاجهما من قبل المنظمات الملتحية، التي أشرفت على تعليمهما، إلى أن افلتا منها لدى دخولهما الجامعة! فقد مثلت الجامعة لحظة قطيعة جذرية بينهما وبين حياة التنظيم، الذي ألفاه منذ وقت مبكر.. قطع عليه مجيء روزاليندا حبل تأملاته. فخرج من معركة سحر ونواي، سارحا في حياة روزاليندا: (أنشودة الخريف) كما يطيب للأصدقاء تسميتها..

نشأت روزاليندا الساحرة، في أسرة غريبة التكوين، اختلطت فيها دماء الشمال، باليهود الفلاشا والقبط المصريين، وبقايا ألبان محمد على الغزاة، الذين استولوا على أسواق الذهب والقماش.

أحبت روزاليندا في مراهقتها أحد الشبان، وهربت معه!

كانت لحظتها تخسر أسرتها وإلى الأبد!

عندما مات حبيبها في الحرب (والذي كان قد أصبح زوجها بعد عدة سنوات) حاولت العودة، فوجدت أسرتها قد انهارت تحت ضربات سياسات التحرير الاقتصادي، التي استهدف بزعانفها السوق، كسمسار بارع! فانزوت روزاليندا في أول وظيفة أتاحت لها، كمرمضة! كانت أسرتها العاجزة عن الصفح والغفران، تقف في بحر متلاطم الأمواج، تعلقو وتهبط على حافة الفقر، وبين مفترق الطرق، انتحرت

شقيقتها الصغرى، تقطعت أوردة الأب وشاربينه وأصيبت الأم بالضغط
والسكري وضعف القلب، ولم تلبث أن لحقت وزوجها بابنتهما المنتحرة!
باعت الشقيقتان المتبقيتان البيت الكبير والدكاكين الخاوية. وأعطتا
روزاليندا نصيبها ومضتا إلى القاهرة، بحثا عن إعادة توطين، خارج
البلاد الكبيرة. بينما بقيت روزاليندا تشهد رحيل آخر من تبقى، من
أسرتها إلى المهاجر!

تمزقت أسرتها أشلاء، بين باطن الأرض و منافئها. فشعرت
وهي تودع شقيقتها. أنها لن تلتقيهما أبدا، إلا في زمن افتراضي!

سافر عبده الخال في ذاكرة البنجوس، إلى مضارب قبيلة في الوادي القصي، لا تزال تموت بأمراض منقرضة..

في سوق الاثنين "أم دورور" شدت صبية واسعة العينين انتباهه. كانت مراهقة ملظلة، تتبدى عن بداوتها وبريتها، بجنون لا حد له..

قال الدليل، الذي كأنه خرج للتو من أعماق جل نامي: إنها تظهر في السوق فقط، لا أحد يعرف إلى أي القبائل تنتمي، أو أين تمضي أيامها. تغيب في الفلاة، كأن الجبال البعيدة تستردها، لتعيدها في يوم السوق.. الجميع يهابها ك"إبابا سي" زمزم أو "الميرم" تاجا، فهي عنيدة وشرسة، كأنها تخرج من مجد الجبل.. توغلته حكايتها، تسربت مسامه.. تحكمت في مسارات ذاكرته.. و ملأت الفراغات.. الدوائر.. الخلايا.. كارتعاشة كهربية متموجة، تملأ فجوات الذاكرة وتفيض..

دفعه الفضول لارتياح "الباجة" مع الرعيان.. والظوف الأمني. التف الجميع حول غزالة جميلة، يطوقونها دون أن تشعر. حاصروها، عند عودته من ذاكرة الكومندان، قال عادل لعبده الخال: "كانت الغزالة تشبه تلك الفتاة الغامضة، إياباسي عنيدة مثلها.. كنا نقرب منها بخراطيشنا، وكانت تقف على نحو مدهش. هادئة، كأن الأمر لا يعينها.. كنت أرى الغزالة تتبدى عن عائشة يا عبده!"

"بينما يجن جنون سلمى؟ إنها قلقة عليك!"

"أنت تعلم إنني أحب عائشة"

"وسلمى؟!"

”لا أستطيع الاستغناء عنها“

قوى خفية تدفعه. تتحكم فيه. قوى لا ملامح محددة لها، مثل عائشة خلف حجاب، نقاب، ستار.. قوى غامضة، تماما كشيء من الجنون، و الحجب والكراهية والوهم!

شيء أذلي يسلبك إرادة المقاومة، يستنزفك و يسحبك إلى مفاوز ومغارات ملونة، وبيداء تضوع بعطر المخاطر، التي لا حد لها.. شيء مهلك في تلك الغزالة، وهي ترسف في دمها، الذي تفجر بغثة من صدرها، فلم تعد تلك الفتاة تظهر في السوق!

كانت قد اختفت كقص ملح في أرخبيل عريض!
”إنها لعبة البنجوس يا عادل، انه يضحك علينا، يتلاعب بأخيلتنا و تصوراتنا، ويجعل من ذاكرتنا شيء هلامي نعجز عن الإمساك به!“
”لا، بل الجرثوم الموروث في دمي.. لعنة الوادي، تعبت بي، تأسرتني،
كيما تحدد هويتي التي لا أستطيع إدراكها!“
”بل لعبة الايدولوجيا!“

ومع ذلك كل شيء محض أكاذيب وهراءات ومزاعم؛ تخيل وطننا بكامله ينهض في الهراءات والمزاعم!
سحب عادل العود، كما كان يسحب البنجوس ربابته، في زمن مضى وانقضى.

اغمد الوتر في وجه عائشة. عزف النزع الأخير بدمها الذي ضرج ذاكرته، وانتظر ريثما تهدأ أنفاس الجميع، ليتسرب الغسق وارتعاشات المساء بلحن حزين!

”برهان الحبشية تسأل عنك يا عادل“

”إنها صديقتك أنت“

قال عادل بخبث، فنفى عبده الخال بهدوء، وهو يقول ساخرا:

”حتى أنت يا..“

”دعنا من ذلك الآن. ماذا قررتما أنت وسلمي؟!“

”رهما نتزوج“

”لولاها لما خرجت من مستشفى المجانين“

”انه ليس مستشفى للمجانين“

”أعلم.. أعلم، المرض النفسي شيء عادي مثل الملاريا والحمى

الصفراء، وهلم جرا.. هل تصدق فعلا أنه شيء عادي؟!“

ثم ضحك عبده الخال وهو يضيف:

”هو فعلا غير عادي لارتباطه بالحساسية وسعة الخيال“

على غير توقع دخل الكومندان: فأرادوا أن ينهضوا..

”لا. لا الزموا أماكنكم؛ أريد الأُنس بكم قليلا“

أدهشهم هذا اللطف فوق العادة، الذي أبداه. سأل عادل:

”كيف حال الحاجة حليلة؟“

فرد الكومندان بأسى:

”عمتك حليلة لا تزال تصر على قضاء ما تبقى من عمرها في الانقسنا،

وأنا أصر أن نمضي لقضاء البقية الباقية من حياتنا في الوادي، و لمياء وزوجها عبده لا يعجبهما العجب!.. كما ترى نحن جميعا على مفترق طرق“
”كل منكم اختار معنى وجوده وهويته“

الصمت الذي حاصر الغرفة قبل قليل تبدد في الفراغ؛ وانخرط الأصدقاء في الأحاديث الجانبية؛ حتى أنهم لم ينتبهوا لمغادرة الكومندان البنجوس، واختفائه على نحو غير محسوس من فضاء الغرفة، التي كانت قد تعبأت به قبل قليل.. كأنه قال كلمته ومضى!

سأل نواي:

”ما الذي حدث؟“

فردت لمياء بحزن مصطنع:

”منذ ذلك اليوم لم يره أحد“

”ماذا تعنين؟“

”اختفى الكومندان بصورة غامضة تماما، كأنه تلاشى في الفراغ!“

في كافثيريا "أتني" يتوشح الفضاء الأخضر بالنزيف؛ تتهدم قلوب
الذكريات؛ ويشرع المنفى بواباته الأسطورية السبع!

قالت سلمى:

"أتمنى لو كان عم البنجوس حاضرا لأتكئ على صدره"

رد عادل بحزن:

"شهد على زواجنا، كأخر مهمة تاريخية له، ومضى دون أن يخلف
أثرا!"

"لقد أحببته كثيرا.. للأسف كل شيء يتكشف بعد فوات الأوان!"

"كان قلقا عليك"

"اعرف. كان ممزقا بين خيارين أحلاهما مر.. كان يعرف أنني ابنه،
مثلما أعرف أنني ابنه، دون أن يجروا أحدا على التصريح!"

"احبك"

غادرا كافثيريا أتني وهما يدسان جوازي سفرهما بحرص..
خطواتهما على الإسفلت يتضاءل وقعها.. يتضاءل.. تذوي الخرطوم
خلفهما؛ وبيتلع الفراغ الصدى!

منذ تقاعد البنجوس، أعتاد الجلوس كل مساء تحت شجرة
الجهنمية، حيث يطيب له التنهد "والله زمان يا زمان" ثم "يجبد"
نفسا طويلا من "الشيشة" لا يلبث أن يكحه في ألم، فتغمزه سوزي:

"يا كومندان الكُبر دخل، أنت بقيت ما قدر الحاجات دي"

فيضحك البنجوس:

"الشجر الكبار فوقو الصمغ.. الدهن في العتاقة يا زولة"
ويهمس في أذن نواي ب البذاءات، فينفجر الأخير ضاحكا، وهو يكاد
يقع على قفاه.

لا تزال آخر لحظة رأوا فيها الكومندان، داخل الغرفة معهم، تشكل
حضورا قويا، يشتم أفكار عادل. كأنه يقف أمامه الآن، تحت شجرة
"المحنة" كأنها البارحة. تلمع كلماته في الظلام. تلقاها وذهب "على
مفترق طرق" كالمسيح .. ذهب.. وتركه وحده ، كما كان وحده دائما!
تنهد عادل بأسى. لم يعد يطيق البقاء بهذه المدينة، فهي دون
الكومندان وعائشة لا تساوي شيئا! رغم زواجه من سلمى لم ينسهما!
كل شيء يذكره بعائشة؛ الآن كالمجذوب بين الصحو والنوم..
الشوارع، الدروب، شجرة "المحنة" والبرق العبادي: كل شيء يذكره
بها.. سأله الطبيب:

"وماذا بعد؟!"

هزَّ عادل رأسه والشroud يصبح جزء لا يتجزأ من طبيعة نظراته:
"كلما ملحت البرق العبادي، أشعر بإحساس غريب، ينبثق منه
يحاصرني.. عندما أخبرت عائشة بذلك في تلك الليلة المطيرة، ونحن

نشق معا دروب المدينة المتعرجة، بأن البرق العبادي يتغلغل داخلي
و يخلخلني.. ابتسمت“

”و ماذا قالت؟!“

”ألا أخبر أحدا“

”حتى عبده الخال؟!“

”حتى عبده. كنت وحدي، فدنوت ودنوت. كان المطر قد توقف.
ولم تكن عائشة موجودة، كدت أجن! عندما التقيتها في المساء التالي
لم تكذبني، كما كذبني الآخرون“

مع البرق العبادي بدا كل شيء في مسيرة التحولات العظيمة لحياتي..
الآن تنساب المشاهد والصور:

هل أتوهمها؟! فتسكنني بالألم والأسى!

أم هي حياة عشتها حقا في ذلك الصباح البعيد!
كان البرق العبادي يلمع في قبة السماء، فأين المفرد؟! يلمع حيث
تغيب الشمس. قلت لعائشة في ذلك المساء البعيد:

”احبك؟“

فردت:

”أكرهك“

عائشة بذرة الحب التي هرب بها والديها بليل، حتى لا ينكشف
أمرهما، كانت تنظر لأشقاتها وشقيقاتها بإحساس غامض، كأنهم غرباء
التقوا في مكان ما، دون حميمية ليفترقوا ذات يوم..

”نعم أنا ابنة جبهما، أنا العباء الذي رماه عاشقين عن كاهلها“

ومضى كلانا في درب مختلف. النصل الذي أغمدته عائشة
في داخلي، يفاقم إحساسي بالخطر.. والحزبين يفرون من
وجهي، كما يفرون من الجرب، وإذا التقيت أحدهم مصادفة:
”لا تتصل يا رفيق، سنتصل بك نحن. دواعي تأمينة“

قال عبده الخال عند عودته ولمياء من العراق و سوريا:

”ما رأيناه أن دولة الحزب انقلبت على مشروع المنور الغربي،
الذي استخدمت مفاهيمه ومناهجه على نحو عكسي تماما.. لا أمل!“

”الجميع ينقلبون.. حتى عائشة .. تركتني دون مبرر“

”إنها طائشة؛ لن تلبث أن تهدأ“

”لا ستسافر إلى والديها“

”وستعود فهي لم تعد مقيمة هناك“

اقترب الطبيب الشاب:

”يجب أن تدخل إلى غرفتك؛ عما قليل ويهطل المطر“

نعم انه البرق العبادي ..

انطلقت الخرطوشة، وتلتها أخرى فتالثة. كانت الغزالة قد تلقت في صدرها كل الطلقات، وعلى نحو مفاجيء انكفأ جسدها على طيف عائشة، الذي انبثق من الجرح الذي خلفته الطلقة.. اختلطت دمائهما.. تلاشى الجسدان في جسد واحد، واتسعت عينا الغزالة على مصراعيها، وهي تغالب النزاع الأخير.

انقبض صدر عادل، فغادر الوادي على عجل. قال لعبده الخال عندما وصل مرعوبا:

”كان طيفها متوحدا في الغزالة“

”أصبحت تصوراتك مخيفة ومزعجة؛ أخشى انك ستقتلها ذات يوم!“

”لا يا صديقي. إنها تدمر حياتي، بطيفها الذي يلاحقني“

”هذا وهم؛ يجب أن تنسى الأمر!“

كان عادل يدرك أنه آخر مساء يغني عايشة، على إيقاع العود.. غرامه بغزالة ذات صدر ابيض، بعروق نافرة، زرقاء.. امرأة لا وجود لها، كحلم الأم في ذهن طفل يتيم، كشهوة لليالي مستحيلة، تغيب في وله مستحيل.. ريح بلا زفيف.. مطر سري.. غناها وهو يمضي متسللا الدروب المتعرجة للديوم، حاملا العود تحت إبط، وفي الإبط الآخر دفتر أحلامه الزرقاء، وزجاجة عرق، وعلى صدره تئن أشتات الماضي، ولعبة الذكريات، والغزال الذي يصطاده في كل مرة، ووادي الأم اللعين! ذات جرح مخملي في ذاك المساء، خلال ظل ما.. انزويا.. متسريلين الظلال.. ضحكت ملتاعة وهي تنتزع نفسها.. اتكأت على صدره

(الغزالة المضرجة بدمائها تسيطر على عائشة) الحلم المتناثي. الملتهب،
المر. المتأوه..

كأن كل شيء محض صراع، مقاومة لقدر مجهول، تهشم غصن جاف
تحت ثقلهما، داهمتها سحابة معبأة بالثلج. أفرغت ندفها وافترقا،
لتأني بعد أيام وتقول:

“أكرهك”

“لماذا يا عائشة؟!”

“يجب أن نفترق”

رحلت عائشة، في حصار والدها لها بكاسيات ابن عثيمين، التي
يشغلها كل مساء بعد أن يغلق التلفزيون، ويجبر كل الأسرة على
التحلق حولها!

رحلت محاصرة بالصوت والصدى فذهبت إلى الأبد، وهي تشعر
بالخطيئة، وأنها ستحشر في جهنم! تحاصره الغزالة، تحيل حياته إلى
جحيم وتدفعه إلى المغامرة.

رغبة لا تستطيع مقاومتها. آخر مرة اتصل بها، كانا لا يزالان
يغالبان جنوح الشوق. آخر مرة اتصل بها، كانت هي تلك المرة
التي ردت فيها وهي تنهره:

”أنت ثقيل“

”من حقي أن أعرف لماذا تركتني؟!“

”فقط أكرهك“

”أعط نفسك فرصة؛ واحدة على الأقل!“

غامر. نزل من الحافلة واقترب من البيت الفاره. دق قلبه بعنف
وهو يلحظ الزحام وعربة الشرطة أمام البيت. اقترب..

كانت عائشة الزهرة البيضاء، مسجاة على البلاط المملطخ بدمها،
كلوحة سريالية، وحلم غامض يمتد بيقع الدّم حتى نجيل الحديقة.

ارتسم على وجهها، ذلك الرعب بوجه الغزالة! نوع غريب من
الرعب ورهيب. لا شيء مثله.. أحس بصداع عنيف يجتاح رأسه.
”ثمّة حلقة مفقودة هنا!?!“

قالت سارة وهي تستمع إلى عادل في اهتمام، فيما كانت تراقب
الأطفال اللاهين بعلب الصلصة والزجاجات الفارغة، الذين أخذوا
يشدون انتباههما..

تنكفى نظرات عبده الخال على شجرة المحنة، ويأتي صوته المندغم
في صوت البنجوس عميقا مؤثرا:

توسط شوروو شطة النار المشتعلة؛ التي تحلق حولها كل أهالي
الوادي. مد عنقه في أسي، على امتداد ساعديه اللتين خالهما الناس..
كل الناس.. متمدان في اللانهاية، وعلى إيقاع الطبول أخذ يرقص،
والنار تلتهم الحطب الجاف تحت قدميه، تضيق دائرة النار. يختفي
وجهه في اللهب، ويتحرك الجبل الرابض في حضان الوادي ببطء.

يختفي رأسه وتلتحم دائرة النار، لتصير شعلة واحدة، فيختنق
صوت الطبل و وتر الربابة والعود، ويصمت كل شيء!

وتنفرج عن الجبل فوهة تأخذ في الاتساع. يخرج شوروو بعد فترة من
الزمن، نافضا رماد الحريق عن إزاره، ومثل كل مرة يلتف حوله الناس،
كأنهم يرونه في طقسه المهييب لأول مرة. يمسخون عن وجهه حبات العرق!
لكن هذه المرة لم تكن مثل تلك المرات؛ فقد كانت آثار الخراب
والدمار، تفوح من كل شيء، وفي كل شيء..

” جبل نامي تبدأ وتنتهي به الجبال ”..

قال أومي. تنهد البنجوس، وهو يستعرض جنوده المتراصين في
نظام عسكري دقيق. ثم زفر:

”هذه المرة ليست ككل المرات، التي يتعرض فيها الوادي للغزو.
لم يحدث أن تمكن الغرباء ذوي اللون الوردى، أو القمحي من سبي
نساءنا. لكن اليوم نحن مهزومون. لقد سبيت كيرا لنقي نوارة فريق
الشرتاي..

لقد قمتم بواجبكم كأبطال، لكن ما كتب أن يكون، يكون. وما سيكون لا نعلمه.

أديت طقوسي وأدركت أنها بداية النهاية، لحكاية قديمة استمرت منذ آلاف السنين. انه حنين الأسلاف وتنبؤاتهم. يوم تسبى نوارة الفريق، يبدأ خلف الأسلاف الحياة..“

قال عبده الخال:

ورفع البنجوس يديه معلنا انتهاء التعليمات؛ لينفض عنه الجند الذين أخذوا أوامرهم.. وينفض الناس لكن دون أن يتفرقوا. كانوا مسمرين على الأرض الحجرية!

مضى البنجوس بخطوات وثيدة، إلى فوهة جبل نامي، مع طليعة الجند، تاركا خلفه الكيرا تقود فيلق المزارعين..“
تأوه عادل، وعائشة تستعيده إلى مداراتها، كاسترجاع آلي لشريط كاسيت. كانت عائشة فتاة الحزن البديع. اليافعة يفوع فرخ ”الْقُمْرِيَّ“ بريئة كصفحة بيضاء حد الفجيعة، في تصالحها مع ابن عثيمين. لكن سرعان ما انتهكت، و انتقلت إليها عدوى التآزمات والهواجس والظنون، والمثاقفات الفوضوية.. هذه الأوبئة التي تصيب أطفال اليسار، فتقلب ليلهم نهارا ونهارهم ليل!

قال مناوة:

”إنها ككل جوارى المثقفين“

رمقه عادل بألم وأنهد في تأوهاتة. أصبحت عائشة تجتر حزنا قديما، كالذي يثير أشجان أطفال اليسار، ويدفعهم للنضال بالكمنجات، حتى تتقطع أوتار الذكريات والأحلام، و تتحول إلى أشلاء أحزان نبيلة. أولى سنوات عودتها إلى الوطن، من بلاد النفط للدراسة بالجامعة. أدمنت الأشعار المأساوية، الموسومة بـ المعاناة والنضال!

كانت تهتف في المظاهرات، لكنها لم تكشف عن نقابها أبدا!
أدمعت عيناها بالدموع وهي تنشج بالبكاء:

”ما الذي تريد أن تعرفه يا عادل؛ ألم يخبرك رفاقك في الحزب ماذا
فعلوا؟“

”لم يعودوا رفاقي، أنت تعلمين ذلك! ومع ذلك الحزب ليس عمك
الشعراني“

أنهد صوتها وانهدت.. كانت ألما خالصا يقطع بوحه شرايين القلب،
يسيل في وجدانه، يستفرغ وجدانه.. ود لو كان بمكنته إخراجها من
هذا النفق، انتزاعها من هذا العذاب القاسي!

تاهت بعينها بعيدا وانسل صوت عادل متوترا كصوتها.. مخترقا
سمع عبده الخال..

كان الشعراني احد القيادات السرية، ومسئول المنطقة (ج) على
رأسه الأصلع انزلقت الطوباويات المادية، وتصورات اليسار القومي
والأممي، وترهات الطائفية وأرصدتها من اليمين!

تزوج الشعراني (المحاضر الجامعي الذي لا بأس به) من إحدى زميلاته،
مساعداً للتدريس، من المناضلات القدامى اللاتي افنين زهرة حياتهن
في المطالبة بحقوق المرأة، ربما لهذا السبب بالذات، طلقها الشعراني
ثلاث طلقات، واحدة تلو الأخرى، بعد أن أنجبها اثنتين من البنات..
وفي البيت القديم الذي شهد ولادته وأخيه المغترب (والد عائشة)
احضر طفليته لتستقرا مع أمه (لتؤنسا وحدة الجدة، التي باتت
تتأكلها الغربة والوحدة) في هذا البيت المتسع، دون أنيس!

وقتها كانت ظروف الشعراني تسوّ باستمرار، توقفت مخصصاته
الحزبية بسبب ”مهام المرحلة النضالية الحاسمة، التي يمر بها الحزب
العتيق الذي أنهكته الانقسامات“ كما أن الحزب فقد الكثير من

استثماراته، والحكومة الجنجويدية، فصلت كوادره الذين يساندونه
ماليا من كل دواوين الخدمة العامة!

كما أن التحولات التي اعترت العالم، تسببت في وقف الدعم الأجنبي،
وهكذا تكاثفت الأسباب والعوامل، لتجعل كل ما هو منهار أشد انهيارا.

حتى إيجار الجزء المفصول من البيت، الشاسع للحزب كمحطة
تأمين، ما عاد الحزب يفي بالتزامه تجاهه. والشعراني يخشى المطالبة
بالإيجارات المتراكمة، خشية الاتهام بأنه ”برجوازي صغير“! فواحدة
من المشكلات النفسية العصية للشعراني، أنه ظل زمنا طويلا يقنع
نفسه بأنه ”مثقّف ثوري“ ومع هذه الشعور المزمن، ظل الشعراني
مغلوبا على أمره، حتى انه لم يتمكن من طلب العون، من أخيه
المغترب والد عائشة، فهو لا يريد أن يمد يده لشخص ”رجعي امبريالي،
مختلف معه أيديولوجيا، كطليعة تقدمية ثورية“

وهكذا لم يصدق الشعراني نفسه، حين تذكره أحد زملاء النضال
القدامى، وجعله موظفا عنده في مكتبه التجاري المريب!

ولأن الشعراني مناضل فذ، لدرجة الإصابة بجملة توترات جسدية،
راودته فكرة الزواج مرة أخرى، ”فالحلم الاممي لا يسقط بسقوط
تجربة واحدة“، وهكذا استبعد النساء المثقفات والمتورطات في
منظمات السلام الأخضر، وناشطات حقوق الإنسان! وعمل على
استحضار نقاط ضعف رب عمله الرفيق ”أوشي“!

فقفزت إلى ذهنه ذكريات الجامعة والمغامرات الصغيرة، مع
الزميلات العوانس والأوانس، وكيف أن أوشي كان كصحراء تيه عتيده،
وهو يعد الخطط ويرتب التفصيلات، وقعت حنان شقيقة أوشي بين
التفاصيل، فالتقطها وأصبح ينتظر زيارتها المتباعدة للمكتب، بصبر
عظيم يليق بمناضل له تاريخ الشعراني العتيدي!

وصارت زيارات حنان متقاربة يوما بعد آخر، فيما ”يبدو أن جوهر المسألة على وشك التحقق، باكمال نصف الدين الجديد“.. وهكذا تم حذف تفاصيل، وإضافة تفاصيل أخرى، لخطط الشعراي المدهشة. التي استخدم فيها كل خبراته التنظيمية والسياسية ببراعة. وتوجت خطته العظيمة، بحضور عائشة ابنة أخيه من الاغتراب لإكمال دراستها! ريثما يكمل والديها بناء فيلتهم الفارهة، ويعودان نهائيا لأرض الوطن!

ومع انه ”كتقدمي“ لم يستطع إقناعها بخلع عبائتها السوداء، التي تشعره أنه يقف أمام وطواط، إلا أنها أبدت مرونة أسرية، فقد أدركت بعد كل مناقشاتهما حول العباءة والحجاب، وبخبرة الفتاة التي انتهكت مرة، أن عليها أن تكون لطيفة في التعامل مع عمها، والضيوف الذين يرتادون منزله! مع أن الحجاب من عدمه، لا يمثل معيارا عاما من أي نوع؛ لخصوصية الزي البحتة!

ومع الأيام اعتادت على أشياء كثيرة كانت ترفضها؛ وأخذت شيئا فشيئا تستجيب لاهتمامات عمها بها، ومداهمته لها في الجامعة بين أن وآخر، ليوصي أعضاء التنظيم عليها.

كان يتصور صادقا، أنه يؤدي في رسالة نبيلة وعظيمة، فالتحول الحقيقي ينبع من مدى ما يحدث بوعي الجماهير من انقلاب. أليست عائشة من صميم هذه الجماهير التائهة!؟

وهكذا تورطت عائشة مع البروليتاريا في أحلامهم، التي تختلف جذريا مع أحلامها، دون أن تدرك ذلك إلا بعد فوات الأوان، لكنها والحق يقال، كانت لوحدها تمثل فصيلة مختلفة داخل التنظيم! وهكذا شهد بيت التأمين الحزبي، تراجعاتها التي بدأتها بخلع الحجاب على استحياء..

تساقطت الأوراق الجافة لشجرة النيم الهرمة، التي توسطت الحوش، أصبحت ليالي عائشة ملونة في بيت أوشي.. في المكتب.. في بيت التأمين.. في الكافيتريات وأماكن عديدة ارتادها بجرأة محمومة ودون خوف (أو هذا ما كانت تحاول إظهاره).. أصبحت عائشة كالمارد الذي أطلق من قمقمه، بعد آلاف السنين من السجن المؤبد.

لم تعد تتذكر نفسها إلا عندما ترتدي أحيانا العباءة، أو تخلعها كأنها تعاقب نفسها، على مثال كائنه يوما..

”أخذتك الخرطوم بين منعرجاتها ومنعطفاتها؛ هكذا هي الخرطوم مدينة الغزاة، بأخلاق الغزاة“

قالت لعادل:

”صدقني اكره نفسي كلما رأيتك“

”انت غير طبيعية!“

”وأنت كذلك“

كان عادل أصغر أعضاء القيادة، التي كان أوشي مسؤولها، ولم يقطع علاقته بأوشي، رغم مغادرته ”حظيرة الحزب“! وكان أوشي يدرك أن التهم والشائعات، التي أطلقت حول عادل، بعد تركه الحزب محض افتراءات، لكنه يدرك أكثر أنها ضرورية ”لحفاظ على تماسك الكادر“ المتبقي.

في تلك الأيام الصعبة.. لم يجد عادل من يؤازره سوى عبده الخال وسلمى و أوشي.. حتى مناوة ونواي هربا من وجهه! تراجع عادل ليغيب في صوت سلمى، الذي يحاصره من كل فج. وخفضت هي صوتها وهي تتحدث عن ”دماس“ ربيب العمدة حفيد تلك النوباوية ”الصمة“ كاكأ، التي داعبت خيال الفرسان، فسقطوا عند أقدامها المحناة مخرجين بدمائهم.

ورثت عنها سلمى العينين اللامعتين، كعيني صقر جارج، والشعر
الغزير الخشن، والأنف الأفريقي البديع!

يروى التاريخ المهموس به في الاندييات، أن العمدة الكبير؛ هو
الذي وهب دماس فحولة لا تقاوم؛ يوم دخل بكাকা ذات قمر مضيء..
ويشير ذلك الهمس فيما يشير، لفارس القبيلة الذي كان ينافس
العمدة سرا. قالت سلمى:

”كان العمدة الكبير عنيئا؛ مما يضع فحولته موضع تساؤل؟!“

بل يضع فحولة دماس نفسها في ذات الموضوع.. ومع ذلك
كانت شهريارية العمدة لا تخفى على أحد، فزوجاته اللائي لم
يستطع إرواء ظمأهن، سوى ذلك الفارس المجهول، كنَّ يسر بن
كل ما يجري داخل البيت الكبير، ليتناقله الرجرجة والدهماء!
لم يكن دماس يفهم شيئا، من تلك العبارات التي تتحدث عن “الشوق،
والليل والمساء، والفارس الفحل المجهول، وكل تلك الأحاديث من هذا
النوع. لكنه كان يحسها، فيزهو مشعلا ذلك القلق، الذي لا يدري
كنهه، وينتصب كفحل، تسقط تحت قدميه النساء، لوعة وتشهي.
ومثلما تركع المدن تحت أقدام الغزاة والفاتحين، يشرع دماس
هراوته في بيت العمدة الكبير، مما يرجح أن ذلك الفارس المجهول،
إنما هو دماس ذاته!.. الذي ينهض أثر كل غزوة، فيتمنى أن لو كان
النحاس قريبا منه ليضرب عليه:

”يا عريبي خت الطلبة، يا عريبي خت الطلبة،

باكلكم.. باكلكم..

باز نقر.. باز نقر⁽¹⁾..

(1) من أهازيج نحاس العمدة في النيل الأبيض، في الحقبة التركية، وهي أمر خاص
بتحصيل الضريبة ”الطلبة“.

وتتجدد الحرق التي تعتمل داخله فيركض إلى أندية كاك، متسللا
زقاقات الرديف، فيهتف لدى حضوره الشربين:

”يا قاصد الشراية،

مقابل الشيخ بالقرابة،

دماس وكتين جاها،

ود النوبة ما صفاها،

لقى الزبدة رباطها،

بطل شغلته وراها⁽¹⁾..

ويشرب. يشرب حتى يرتوي ويمص الذباب الأخضر، الذي يعترض
جرعات الكأس. يبصقه على وجوه الشارين، دون أن يأبه للعنا تهم..
تأتيه كاك، تهمس في أذنه، فيمضي إلى الداخل، يفاجأ بانبنة العمدة
نعمة في ”الدردر“. تسنده كاك بصدرها العامر، الذي كان فيما مضى،
يداعب باستفزازاته الملحة خيال مرتادي الأندية.

تقترب النعمة، ابنة العمدة، تكشف عن جسد متمرد، مجنون،
تحتضنه، تغمره فيها. يتهشم كأس القرع في يد أحد الشارين، وتندلق
”المريسة“ المزبدة، وتفوح رائحة الخمير! فترتخي أعصاب دماس على
عنقريب ”القد“ خائر القوى، مهدود الحيل ”كود أبرك“!

”أنا حفيدة النعمة يا عادل“

”الحاضر هو خلاصة الماضي.. نحن اليوم على ما أراد لنا أسلافنا،
في لحظة معطاءة ما“

(1) اهزوجة شائعة في خمارات الخمر البلدي (الانديات) في النيل الأبيض، يغنيها السكارى
أثناء قعداتهم.

يرد عليه بصوت آلي، وهو يتداعى في عذاباته. يمضي كدماس، يودع الدار التي تعانق راياتها الحمراء عنان السماء. يمضي مشهرا سكينه الطويلة، التي لم يُشاهد أبدا يغمدها في جسم احد. فقط يشهرها في الوجه لمجرد الإخافة، حتى في تلك اللحظة، التي اختفى فيها بصورة غامضة، وإلى الأبد. يهتف دماس بصوت عال:

”أنا لست دماس، أنا عبد الله، البقول لي دماس تاني سكين دي بتركبو لي حدّها!“

ويستمر في صرخاته مارا بزقاقات الدّيم، ليجد نفسه في أنداية كاكا مرة أخرى. يقح خائر القوى. يتسائل الزبد من شذقيه، ولا يصحو إلا والنهار قد شارف على الزوال.

تراجع عبده الخال إلى أعماقه ”لست يا ملياء كدماس، ولست عبد الله مزعوما، ولا أنت حفيدة النعمة بنت العمدة. ستركعين عند قدمي يوما، مهزومة وتطلبين الغفران.

”أمعن عبده الخال النظر في الأطفال الأشقياء، الذين يخرجون من أعماق الديوم، يلهون بعلب الصلصة والزجاجات الفارغة، قالت طفلة لطفل :

”انت متخلف“

فرد عليها بعنف:

”وانت مطلوقة ووقحة وما عندك اهل“

ارتفع حاجبا عادل ولمعت عيناه في ذهول؛ ومضى ليلتقي سلمى عند نهاية الحي؛ بعيدا عن شجرة المحنة؛ أطلا على البحر. وقفوا كشجرة أراك وحيدة في جبال الشرق. ولفهما صمت مكابر، سارع على قطعه:

لقد قررت..

طوقت عنقه؛ وهكذا تزوجا في صمت، وهما يتراجعان عن شاطيء
البحر.. أيضا في صمت..

قال الطبيب الشاب لسلمي:

”أنه لا يسمع كلام احد غيرك. فلا تعطيه الإحساس
بأنك تراقبينه؛ وحاولي أعادته إلى غرفته قبل هطول المطر“
همهمت سلمى وهي تجذب الكرسي لعادل، الذي جلس يراقب
الغيوم المتلبدة في أفق السماء، وهي تتجمع من كل حدب وصوب،
والبرق العبادي لا يلبث أن ينطفئ، حاملا يلمع في سرعة خارقة..
مع البرق العبادي تشتت الذاكرة، تنساب صور مختلطة، مشاهد
مبعثرة، فمع البرق العبادي، بدا كل شيء في مسيرة تحولاته. أرادت
سلمى أن تجلس، فمد إليها يده:

”لا، تعالي قربي“

دنت منه. أنهد صوته:

”كل شيء في هذه المدينة، يذكرني بعائشة. الشوارع التي وطأتها
أقدامنا، الدروب، الناس والبرق العبادي. إحساس غريب ينبثق من
هذا البرق، يتغلغل في أعصابي. أخبرتها عن ذلك في تلك الليلة المطيرة،
ونحن نشق دروب المدينة المتعرجة. البرق يخلخلني.

توقفت بغتة وابتسمت:

”انه روعي فلا تخبر احداً“

ودنت مني. عندما انتهت كان المطر قد توقف؛ وكنت وحدي؛
ولم يكن لعائشة ثمة وجود في المكان.. كدت اجن.. هل أتوهم حقاً!
كان البرق العبادي يلمع في قبة السماء، في ذلك اليوم هطلت الأمطار

بغزارة، لم تعهد لها المدينة، التي اعتادت (القبلي) وكانت المدينة تنهار..
مع البرق العبادي تلحق بالسماء أسماء أخرى..

”سيكتب (الكجر) في تقاريرهم، أنه محض سكير عربي، يغشى
بيوت الليل دون وازع، لا يمثل تهديدا للأمن، لا جدوى من مراقبته“
استرد عادل بصره من وجه عبده الخال، الذي كان مهوما في تلك
المؤامرة التي اشتركت فيها معه برهان الحبشية) فأرسلت إحدى
حورياتها الملاحظات إليه.. فكانت ردة فعله غير متوقعة، فمنذها
تنتابه الهواجس والظنون والأشجان.

وعادل عندما تنتابه الهواجس والأشجان، لا بد أن يقدم على فعل
مدهش، وهو ما حدا به أن يدعو إلى اجتماع طارئ للأصدقاء، في
بيت البنجوس، في الغرفة المعهودة، لبحث الأزمة العاطفية لعبده
الخال، على هامش وقائع أزمته مع العصفورة ليمياء، التي يبدو أنها
نسيت لحظة عبور الجسر..

تلك اللحظة الحاملة، التي ارتخت فيها الأهداب، وتساقطت
الرموش الوطفاء على صفحة الماء، عازفة على صمت الليل حديثا،
سار بصيته الموج والسمك وكائنات النيل، ولم تتطلب مفرداته كسر في
جوف أصداف، بل رحلت مع نسيم الليل والبحر، لترتسم على بنايات
المدينة العالية، وحواريها وأزقتها، ليركض بها أطفال المدارس في الصباح
الباكر، ويضمنونها نشيد العلم في الطابور الصباحي، لتصبح بعد ذلك
ضمن مقتنيات المتحف الوطني.. مثل كل القصص العاطفية العابرة..

تأمل عبده الخال غرفته الحميمة، غرفته التي يجد فيها أصدقاؤه
متكأ لأحزانهم، إذ يجيئون يضعون أحزانهم فيها، كلما ضاقت عليهم
البلاد، وحثت الرماد على رؤوسهم الطير.

يهرعون إليها مرتدين قميص البلاد الحزن، يحيطهم دفء عبده

الخال، وهو يعزف على العود الهرم، ليمسح عنهم أحزان الطريق
ووعناء السفر. يشعر الخال بما يؤرقهم كقبيلة مهزومة، تقاطعت
فيها شروخات الايدولوجيا وأوساخ الواقع..

لمياء في كل ليلة، تغلق على نفسها غرفة نومها. تشاهد على الكمبيوتر أفلام الجنس، وقبل أن تنام متعبة من وحدتها وانتظاره، تكون قد تدربت قليلا على الالتئاع، عليها تقضي على ما تبقى من حصونه، لكن سرعان ما تغير مشيتها وتهز مؤخرتها، في قلق عميق. عندما لا ينتبه الخال إلى التغييرات، التي أحدثتها على سلوكها..

انه خارج إطار العصر وقوانينه، في عالم يخصه وحده. لا يأبه لتقنية العصر في المشي، والفساتين القصيرة، الضيقة، الشفافة، التي تكشف عن كل سلطات الجسد دفعة واحدة، كقنبلة لا تبقي ولا تذر. لا يأبه لتكنولوجيا الرغبة وتقنيات الشهوات.. فتغادر لمياء.. تتركه غارقا في الحديث الممل، مع عادل:

”تاريخ البلاد الكبيرة هوتاريخ الوادي. تاريخ الهجرات، تاريخ شعب الوادي، الذي شهد، هجرة الميذوب والبرقد من النوبة الشمالية، والبرتي من الشمال الغربي والداجو من الغرب.

تاريخ شهود على هجرة الفولبي الوثنيين، والعلماء والحجاج و (الفقراء) الذين اختطفهم الزبير باشا، قبل أن يصلوا إلى البيت المقدس، واسترقهم فترقوا أيدي سباً!

انه عصر إعادة الإنتاج لكل شيء؛ ونحن ضحايا! عصر الإنجازات الكبيرة، والحروب والحصار والدمار، واكتشاف الخريطة الوراثية وتمجيد الجنس: السر الأزلي!

أدار مؤشر الراديو:

بي بي سي تقول، أن الثوار في جزر (فيجي) أطاحوا بالنظام القائم، وأن مجلس القبائل أكد على خطواتهم التاريخية.

تتحدث بي بي سي مباشرة عن تقارير الأمم المتحدة؛ حول العنف الممارس ضد المرأة، وعن أحد عشر مليون طفل في أفريقيا، يموتون سنويا بأمراض فتاكة، يمكن معالجتها بثمانين مليون دولار فقط! إذا تخلت الحكومات الأفريقية عن فسادها المزمن، الذي تأتي البلاد الكبيرة على رأس قائمته!

كتب أبو عمرو عثمان إلى سلطان مصر الظاهر برقوق في 1391 عن مهاجمة عرب (الجزام) لشعبه، وخطفهم مواطنيه (البرنو) و استرقاقهم، ويرجوه إعادة الذين أخذوا رقيقا إلى مصر، فذويهم (البرنو) يعانون أشد الألم لذلك.

وتقول قناة الجزيرة في تقريرها الإخباري 30/ 12/ 2005 أنه في الساعات الأولى (مما أصبح اسمه فجر الجمعة الدامي) أكثر من ستة آلاف جندي مصري حاصروا اعتصاما سلميا للاجئين السودانيين أمام (المفوضية السامية للاجئين) بالقاهرة، لفضهم بالقوة المسرفة، فسقط ضحية لذلك أكثر من 50 قتلى (رسميا) ومئات الجرحى، وتم اقتياد الأحياء والجرحى، إلى معسكرات للجيش خارج العاصمة! لكن اللاجئين

العزل الناجين؛ يؤكدون أن عدد القتلى فاق المائتين، ومئات أخرى من الجرحى، الذين يتوقع موتهم!..

” يحيا التضامن العربي!“

قال عبده الخال وهو يضع كوب القهوة أمامه. مص القهوة التي تجمعت في فمه ببطء. شعر للمرة الأولى بكافيتيريا (أتني) مكتظة عن آخرها. على الرغم من مضي سنوات، منذ أول مرة التقى فيها الخال والأصدقاء بهذه الكافيتيريا، إلا أن ألفتهم جميعا مع المكان، لا تقل عن الفتهم مع غرفته. بل تقوى يوما بعد يوم.

يأتون في أوقات فراغهم. يجلسون في ذات المكان، الذي اعتادوه منذ سنوات خلّت. المكان الذي ارتبط لعادل وعائشة بذكريات، وأحزان وأفراح وآلام لا نهاية لها!

عاد بذاكرته إلى الوراء، ولمياء تسرب إليه مشاعرها عبر عادل. للحظة العاطفية الخامسة، لمياء لا تعرف ماذا تريد بالضبط. بدأت حياتها بعلاقة محفوفة بالمخاطر، ثم أخرى غير واضحة المعالم، وثالثة باردة.. و.. وانتهت الى حالة عشق مسجون بالأساطير، عشق نشأ في ظروف غريبة ومعقدة!

ففي هذا الشتاء تعمقت حيرتها، وانتابها إحساس بالهزيمة والخور. شعرت بالحاجة لمن يواسيها، و ينفذ عنها كّلس الوحدة والوحشة. في هذا الشتاء القارس.

”لا تتورطي في علاقة عابرة يا لمياء“

”ماذا تعني؟“

”أنتِ كالسجين؛ وإحساس السجين بالآخرين يختلف عن إحساس الطليق“

”وإن يكن“

”عادل ليس لك يجب أن تفهمي أن هذا الأمر وهم؛

مثلما أنت لست سلمى“

لم تكن لمياء تبحث عن مبرر للقبول أو الرفض، إنها تلك الحالة المرضية، للإحساس بالتمييز عن الآخرين. والتكريس للأنا، محور الكون..

نوع من الرغبة في الامتلاك، لا تستطيع مقاومتها، لاتخاذها أكثر الطرق مثالية، مما يمنحها سلطة فوق شرعية، سلطة قاهرة ومستبدة..

”لا أنا بنت مؤدبة“

”غريب! كنت أظن غير ذلك، عندما حكيت لي عن صديقاتك

السحاقيات!“

”انت تتكلم معي بطريقة غريبة! انت بشع، لن احكي لك أسراري

مرة أخرى“

”الكومندان لا يعرف حتى الآن، إلى أي حد أنت مجنونة!“

”إنه صديقي وعمما قريب سيصبح هو وماما حليلة حموي!“

(كان يدرك أن السبب الجوهرى الوحيد، الذى يبقى لمياء إلى جواره هو عدم فهمها له بالكامل، عدم فهمها لذلك الجزء الغامض، المدهش الذى يغذيه الخيال فى شخصيته!

هنا على وجه الخصوص يعلن العصر عن فضيحتة: انهيار

المعسكر الشرقى، تمزق الأحلام الكبيرة، انهيار التواصل الإنسانى،

والارتباب فى كل شيء، بدءا بالناس والأشياء وانتهاء بالكون والاله!

انهيار العالم وتدمير الطبيعة، هما سمما العصر، الذى يسفر عن

تمزقاته أوضح ما يكون..

التمزق الذي لم يبق من حقيقتنا، سوى ما قد نجده في عيون الآخرين، بعد جهد ممض من الألم الحفري. الذي تعتمد نتائجه على التأويل: عصرنا الذي نحن تعبير عنه في سلوكنا التحفز، التوتر، القلق.. إنني لا أستطيع أن أصدق، أن لمياء تحب شيئاً غير ذاتها، ولا أصدق أنها تعتبرني محض صديق، وفي ذات الوقت، لا أزعم أنني أحبها، وإلى الأبد على طريقة المسيحيين القدامى، إذ أتردد في إلزامها بالإخلاص لي غائباً وحاضراً!

ربما ابحث عن تلك اللحظة الإنسانية المشتركة، التي نعيشها معا.. لتتوحد في كيان واحد ضد الموت: كما يليق بعبده الخال وحببته.. ليس ثمة ما يدهش. الدهشة لا تجوز إلا إذا ارتبطت بمشروع، كقضية مطلوبة بحد ذاتها، تحيلنا إلى تلك العوالم، البريئة التي تم التعالي عليها. وأزيلت عن الوجود..

تلك العوالم البريئة، الحاملة بتابواتها وطواطمها، وبراءتها وعذريتها وجنونها..

تلك العوالم التي في الواقع تشبه دواخل إنسانها. لا فرق البتة بين ما هو كائن في الطبيعة، وما هو كائن فيه! حد الدهشة! يعيش عادل الآن دهشة كنت انت قد غادرتها، أو غادرتك.. ينكفى على حفريات، مهجسا بوالده البنجوس، وجدته كيرا..

يعبئه البحث في تفاصيل الحرب الباردة، و النهب المسلح والحرب الأهلية، بالأساطير المتفرعة من الوديان الممتدة من (بلبل تمبسكو) حتى (الله مرقا) و (سجلو) و (بلبل درمنقرا)!

يغوص فيها ليذوب في امتداداتها، بأفكاره المعبأة ب (أزوم ووادي صالح) وتلك الفتاة القمييلة المزينة بالمرايا والخرز. والأسواق

الأسبوعية والعربات الكبيرة، المتنقلة من سوق إلى سوق، وهي تحمل في أحشائها كل شيء: البن، الزيت، الدخن، الصلصة والشطة، إلى آخره من المحاصيل التي تمضي إلى بورصة (أم درمان ونيالا)، أو تتوغل بعيدا في إفريقيا الوسطى وتشاد وليبيا.

لحم الورك الضائي يقطر منه الزيت، مشويا على لهيب النار، ساخنا أمامك مع البصل والطماطم والمرّين) والشطة (الدنقابة) الساخنة..

النساء والصبايا الفارعات؛ ببضائعهم المعروضة لعربات (أم دورور).. اللوبيا، البفرة، البطاطس والفواكه و قصب السكر..

الفلاتة البقارة بملامحهم المميّزة: شنطة اليد النسوية الصغيرة، والعيون المكتحلة، والمرايا والخرز الملون، والسروال القصير والعراقي بالوانهما المتنافرة!

احدهم يرى فتاة من ال (بني هلبا) فتقع من قلبه موقع السهام، ينتفض ويرتعش ويتصبب عرقا.. يغمى عليه من الصباة والوجد..

بنت من (بني جلول) أو (الأمهرية)، واسعة العينين، شعرها ممشط في جدائل طويلة، وثغرها مذموم، تتدلى من كتفها ذو الاستدارة الكاملة، حقيقية من القرع محلاة بالخرز والودع ووجهها الوردى (برشمتة) الممتدة من الأنف حتى شحمة الأذن! يجعلها كلوحة موغلة في الحلم! المقاهي وحركة الناس و(عرب الجزيرة) الذين غزوا الوديان؛ يتنقلون بين الأسواق بتجارتهم، بين (بانقي) و(وادي صالح) و (نيالا) و (انجمينا) ينقلون (العرق) والبن وأشياء أخرى من جنس التوابل..

يختبئ جبل (أبو كردوس) في ذكرى سلطان الداجو (كسوفرو) وأشياء وأشياء تسقط لاحقا على بنية الوعي السلطوي؛ لعلي دينار

وشقيقته الميرم تاجا..

العطور المهربة من الجوار الإفريقي، والأحذية والسجائر السبرينج والنلسون والرياضي الليبي ونبات القرع المتمدد في كل مكان.. هذا الخط.. قال عبده الخال مشيرا لعادل، الذي يمرر قلمه على الخريطة..

يمثل طريقا ممتدا من (زالنجي) حتى (أم دخن).

هناك حيث يتضاءل الحلم بدولة مستقلة عن الفرنسيين والإنجليز بمجيء عام 1916 .

عند (طور) يتلاشى الدفء، ويتحول الجو الى برودة ثلجية تكلس الأطراف، وتوسع الوجه والقفا..

يتسلل الطريق الإسفلتي (زالنجي - نيالا) الوديان في زحف أفعواني حميم. تختفي زالنجي خلف السلاسل الجبلية والوديان والغابات.. الطرق المتعرجة تحجب (دليج) التي تم فيها القضاء على ثورة داوود بولاد، من قبل رفاق الجهاد القدامى! قتل دون محاكمة!

وتقترب (قار سيلا) حيث يخرج لسان طويل من الحصى، يسخر من الأميرة الإنجليزية ديانا، سليلة الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، في زيارتها التاريخية الشهيرة بعد الحرب الأهلية الأولى (85-1990) .. ويمتد الطريق حتى (فوربرنقا) حيث يتفرع منه طريق آخر إلى (الجينة) حاضرة السلطان تاج الدين!

تهدت سلمى وهي تواصل تداعياتها المؤلمة: عادل الوغد، اقترب مني بطريقته المميزة تلك في مداهمة الآخرين، وتحويلهم لأصدقاء حميمين، في لحظة واحدة!

عندما اقترب بلطفه وحنانه؛ كان كلحظة خاطفة.. كبرق لا يلبث أن ينطفيء؛ مخلفا وراءه غياب كل أمل للعزاء..

في اللحظة الأولى أنساني كل شيء، يتعلق بتلك اللحظات المجنونة مع عبده الخال.. تلك اللحظات التي لا أريد استردادها. لكنه لم يكن يعرف ماذا يريد ولماذا؟

لم تكن لديه فكرة واضحة عما يريد!

”أريد أن أحبك كالمراهقين“

هكذا القي بعبارته ذات مرة؛ وأثار جدلا واسعا في أوساط الأصدقاء، حتى عبده الخال استند على هذه العبارة في خطباته البينية.

كان عادل كلعنة أخرى من غياهب تاريخ منسي، مليء بالطلاسم والغموض. لعنة لا تقل عن لعنة عبده الخال، عليهما اللعنة معا! ربت ملياء على كتف سلمى، ومسحت الدمعتين اللتين انحدرتا، في خطين حفرا عميقا في فضاء المكان، وهي تستعيد ذلك المساء المشعث، المحاصر بالغبار، والضباب الذي حجب الشمس، في مسيرتها الغاربية، وأعطى الفضاء مناخا غريبا، لم تعهده المدينة من قبل!

ذلك المساء الذي صار حديث المدينة، لسنوات طويلة قادمة. إذ شبَّ حريق في غرفة استأجرها عاشقين، وأنهتك الجسر الذي يربط الخرطوم ببحري، وانهارت ثلاث عمارات في قلب السوق العربي،

ومعاقين الحرب الأهلية من الجيش الجنويدي الموروث، تحركوا في نظام متقن، يغلغون جسر الخرطوم، ويحاصرون السلاح الطبي، ضغطا لأجل معاشاتهم!

ونشبت معركة مسلحة بالهراوات والعصي و الرصاص والغاز المسيل للدموع، في جامعة أم درمان الأهلية، بين الإسلاميين وطلاب المعارضة، وتفجر المشردون أمام القيادة العامة، بينما جرافات مجهولة، تهدم مجلس الوزراء الجنويدي! وعدد من مواطني الأحياء، يهجمون على أعضاء اللجان الشعبية الجنويدية، و يذيقونهم ضربا مبرحا.. الطلاب يسقطون قتلى، فيتم السطو من المسلحين بالهراوات، والعصي على الموبايلات وحلي الطالبات، تفجر ناقلة بترول في مستودعات السلاح.. كانت (أم كواكية!) أخرى تخرج من قلب التاريخ؛ لتلقي بظلالها على اللحظة الراهنة!

في ذلك المساء الموعود بالحسرات، اجتمع الأصدقاء في غرفة عبده الخال لأول مرة، منذ تم اعتقال عادل وعبده الخال (لم يكن اجتماعهم لتقييم الموقف ولكن) لتقسيم آنسات الشلة على ذكورها على نحو عادل، إذ أصبحت الأمور (كما أفادت عائشة وقتها) معقدة ومتشابكة، ومثيرة للشكوك والريبة، إذ لم يعد احد يعرف من تحب هذه ومن يحب هذا!

ولماذا يمنح هذا أو هذه الود للجميع (فجرا الاجتماع إذن كل هذه القضايا العظيمة، خاصة أنه أعطى الأولوية للحالة النفسية لعادل و عبده كخارجين من المعتقل لتوهما) حتى أن الكومندان نفسه؛ تم توريطه تحت طائلة عدد من الاتهامات، التي لا تخطر على البال (حول طبيعة علاقته بسارة، التي ضبط أكثر من مرة وهو يرمقها بنظرة مريبة تتلصص تحت ثيابها!); وموقع ماما حليلة من كل ذلك، لكن لم يجرؤ أحد بالطبع على مباشرته بذلك)، وأدت إحياءات ذلك

الاجتماع الشهير، وإشاراته إلى اكتشافات مذهلة!

على الرغم من أن المعلومات، التي رشحت وتم تداولها، كانت غير كافية وشابها الكثير من التحفظات، التي كادت تصل لعراك بالأيدي!

وقد بدا واضحاً في ختام ذلك الاجتماع؛ أن كل الأصدقاء (بلا استثناء) كانوا مسلوبو الإرادة تجاه سطوة ليمياء وطغيانها الأنثوي.. هذه الاكتشافات المذهلة، ترتب عليها اجتماع طاريء للمعجبات بعبده الخال (كمناضل جسور)، دون أن يعرن الكوارث التي حلت بالمدينة أدنى اهتمام!

ضحك عادل وهو يستعيد تلك الأيام، وقال وهو يخلف رجل على رجل، كما يطيب له في لحظة انعتاق الأحزان، وهو يتفرس وجه عبده الخال، ليقرأ تأثير كلماته عليه:

على الرغم من أنني كنت أعرف كل شيء عن علاقات عائشة، إلا أنني لم أشعرها بشيء من ذلك. كان كلانا حريص على تأمين العلاقة، بعيداً عن أوشي والشعراني، حتى لا يفرغان فينا سمومهما العقائدية، لكن في الفترة الأخيرة من علاقتنا، صرنا كقوسي السهام، تزداد آلامنا مع انشداد الوتر، وتوتر الأعصاب..

كانت تلمس الجرح في قلبي ولا تهتم، الملح العذاب في عينيها ولا أهتم. عندما ترغب في كلمة دافئة، افاجئها بافتعال معركة. وعندما ترغب في المعركة، اصب عليها ماء يغرق كل النيران، التي أتت تحملها لتحرقني بها..

كانت لذة ألمها، لذة ألمي.. هي التي تدفعنا للاستمرار.. تشدنا تجاه بعضنا وتضعنا على حافة الجرح.. تضعنا في تلك الحالة المجنونة، المتحفزة إلى أن تمزق كلانا. يا صديقي أنا رجل مهزوم! الشروخ قملوئي من أعلى لأسفل، ولم اعد احتمل المزيد..

لن تكون قبيلة النساء التي (نعرض) وسطها، آخر القبائل التي نغزوها!
إنه قدرنا الذي شكلته الصحراء بداخلنا.. الصحراء بسمومها وحرها
اللافح، بأفاعيها وعقاربها وسرايها؛ الذي تحسبه كل نساء القبائل ماء!
انه قدرتي الذي أمضي فيه مسلوب الإرادة، وليتني أستطيع التوقف!
(كان عبده الخال يدرك أن مناوة الخبيث، يسعى لتكوين
جبهة متعاطفة معه، بتوظيف إمكاناته اللغوية في نشر
الأكاذيب البائسة، التي تدمي لها القلوب وتنفطر الأفئدة!
رغم البحث الممض للصدقات، إلا أنهم لم يستطعن اكتشاف: من هي
التي سربت مداوات اجتماعهن للأصدقاء، على الرغم من أن سوزي،
اتهمت فيما بعد بأنها هدهد وطابور خامس، أصرت على أن الوحيدة،
التي يمكن أن تلعب، مثل هذا الدور القذر هي لمياء، ومع ذلك لم تكن
الصدقات، قد تمكن بعد من التوصل إلى نتائج محددة حول مسألة
(التقسيم العادل لذكور الشلة) فيما بينهم، لتوقع بروتوكولا بموجب ذلك!
اقترحت سلمى لجنة تقصي حقائق، حول العلاقات العاطفية للأصدقاء،
تشمل البحث في مرحلة المراهقة، ولا تستثنى الميول الشاذة (بالطبع لم تبدأ
هذه اللجنة أعمالها، لأن أسرار الاجتماع كانت قد تسربت إلى العدو!)..
في هذا الوقت كان الأصدقاء يدعون لمؤتمر طارئ، لم يتم الكشف عن
الغرض منه (رغم تسرب الكثير من شعاراته الفضفاضة، مثل: لم شمل
الأصدقاء - وحدة الشلة - رأب الصدع، الخ..).

وكانت المفاجأة للصدقات داخل المؤتمر، مواجهتهن بصورة طبق
الأصل من محضر اجتماعهن الطارئ، فأصرت روزاليندا على معرفة
(الغواصة) التي قامت بتسريبه. وطالبت بمقاطعة عنصر الاختراق..

فانبرى لها نواي بحسم (الحفاظ على سرية مصادرنا) مما بث
الذعر في نفوسهن، وجعلهن يشكن في بعضهن البعض!

”ما بك يا عبده؟!“

”لا شيء يا لمياء“

مدت له بقايا القهوة.. أخيرا نجح في استرداد ذهنه المكدود:

”ما وصلنا لحل يا لمياء. لسه مصرّة على الطلاق؟“

مرر عبده الخال قلمه الأحمر على الخريطة مشيرا لعادل:

هنا يدخل أحدهم قطية القش، يشعل فيها النار. ترتفع ألسنة اللهب. تآكل النار القطية تماما.. يمضي الزمن بطيئا، وفجأة يخرج من بين الرماد والجمر، وهو ينفذ عن صدره غبار ثيابه المحترقة (ينتقل بقلمه من نقطة لأخرى، ناهبا الطريق في إقليم السافنا): الرمال؛ الشجيرات القصيرة المتفرقة، الأعشاب الكالحة و أشجار التبليدي، التي تمد أغصانها باتجاه الذي يلوح في أفق السماء..

ثمّة أحاديث عن (إبيرة ودرت) تشعل مواجدا. تدفع القلب للتفتت، طي المنعرجات التي تخط حدود كردفان.. هذه الجغرافيا، التي تجفف القلب، وتجعله شحيح الإلتفات، منذ انفصال السلطان هاشم عن ابن عمه تيراب، وتكوينه مملكة خاصة بالمسبعات، غير خاضعة لسلطة الفور.. يمتشق الوقت قامته. يتسربه ضوع السنا سنا، وبقايا نفحات الصباح، التي لا تزال عالقة بشجيرات القضييم ”و ليس ثمّة شمس تؤكّد انتصاف النهار، وبعد المسافة إلى وادي صالح لا تزال طويلة، يتمدد المكان، وتتوالى المحطات: تقف (الشرفة) حدا فاصلا (جربيان) و(اللعيث جبار النبي)؛ (كارنكا)، (الجلابي)، و(الضعين)..هنا.. هذا الخط يفصل قلب جغرافيا الرزيقات البقارة، الذين الآن في طريقهم إلى بحر العرب، حيث الكلاً والماء. وحيث متكأ من علاقات المصاهرة، التي تربطهم بـ (الدينكا الأنقوك).

أخيرا حيث تصعب الحركة إلا بالطوف الأمني. من هنا (يضع عادل دائرة حمراء على الضعين) تتلاقى في قلب جنوب دار فور،

التفاصيل المعبأة باحتمالات جديدة للجسد الممتد غربا!.

رائحة السمن لا تزال عالقة بهذه الخطوط الكنتورية، التي تؤشر ارتفاعا ثم انخفاضا.. تتداخل مع رائحة القزيم، يتناسل مذاقهما على الأضراس متسربا اللثة، ويطل جبلا نيالا وأب كردوس شامخين: كما تصورات الذاكرة..

أب كردوس يشير لجبل نيالا أن يتقدم، ويركع عند قدميه مع سلاسل الجبال الطويلة..

تغوص سلمى أكثر فأكثر. تحاول استرداد نفسها، من عالم بعيد أهدرها. تجذبها دواماته كجزر البحر، ومدّه، تتماهى في كيرا. تصبح هي كيرا ذاتها بلحمها وشحمها، والكيرا هي.. يللم عادل الخريطة على حجره، يغيب في عينيها، اللتين تشيان بوميض غريب كالبرق العبادي. يتلعه الوميض في جوف عيني سلمى.. ينسحب عادل ويغوص داخله، ينقب بين تلافيف وجدانه، يجد عائشة متمردة، حنون، تأتي عبر الباب الخشبي السري، الذي يفصل بيت التأمين، عن البيت الكبير..

بقدر ما كانت تنفر منه، أصبحت تترقبه بشوق ولهفة!

كانت قد اعتادت وجوده، فأحاطت هالة من الألفة والود. أخذت تنمو شيئا فشيئا، لتصبح دفئا غامرا، ثم لم تعد بينهما أسرار، حكمت محاصرة بصوت الملا عمر، حكمت وحكت، بكى وبكت..

كانت عائشة شمس لياليه المظلمة، وقمرها الوضيء. رياحين بستانه، الذي امحلته سنوات العسف والجفاف..

كانت مثل قمر (اربعناشر)، تشير مراهقة المدينة المتكئة على مفرق النيل!

انتزعته من الحوارى، والأزقة، بيوت الليل وفتيات برهان الحبشية
الشبقات..

لم تكن تملك شيئاً إزاء هذا الذي يتحرك بين جوانحها شوقاً لاهباً،
بنفسجاً وورداً مخملياً، ناعماً ودافئاً لحد العذاب..

قدر مجنون، مجابهة بقدر مجنون، قدر أشهر من الاختفاء
الغامض لدماس، والغياب المجهول للكومندان، ولعين كتاريخ ساحق،
محرّم ومحفوف بالمخاطر..

”أرجوك“

”أرجوك أنت“

”انت لا تختلف عن أوشي!“

”أنا احبك“

”أنا أكرهك“

عبر المنطقة البحرية المحفوفة بالشعب المرجانية والحلازين، طرية
الملمس. كان قد أغلق الباب السري وفصل النور، وغرق في الظلمات..
في ظلام الغرفة كانت عينيها تلتمع ببريق عجيب،
وعلى نحو رهيب، أتی صوتها باكياً، متشنجاً..
كان قد امتلأ رعباً، وسكنته الكوايبس المزمنة. أدرك أنه تركها خلفه، في
مضارب قبيلة مسحورة، دونها الطلاسم والرصود!

انسحبت عائشة من عالمه، فارتد إلى أعماقه كحجر أثري..

قالت سلمى:

”وعبده الخال صديقك“

”بل قريبي. الذي أصابته لمياء بالجنون“

”وأنا؟“

مد ذراعه، تتحسس راحته ظهرها بلطف، وتأوه..

تلك أيام البرق العبادي.. أضاء البرق أفناء المستشفى، اقترب الطبيب الشاب ووجه خطابه لسلمي:

”يجب أن تدخله الآن إلى غرفته. عما قليل ويهطل المطر“..

”انه يصر على الجلوس هنا. يريد أن يشاهد المطر يهطل عليه.. والبرق..“

قالت بحياء. أمعن الطبيب الشاب فيهما النظر، وهو يقول:

”حسنا. انه البرق العبادي على كل حال..“

تلاشت خطوات الطبيب الشاب، الذي صعد ليراقبهما من الغرفة المطلة على الحديقة. كان المطر قد بدأ يهطل.. لمع البرق العبادي، فنهض عادل.. اقترب من سلمى. دنت منه. تخاصرا..

لمع البرق العبادي مرة أخرى، تركزت هالته الخاطفة على جسديهما المتوحدين. هبط الطبيب الشاب إلى حديقة المستشفى، كانت خالية منهما. اختفيا في لمح البصر، كلمع البرق العبادي الخاطف..

لم يكتف عادل بفرد الخريطة مرة أخرى، على ركبتيه فحسب، بل انتزع عبده الخال إلى عالمه:

”هذه المنطقة (وضع عليها خط أحمر) تخلو من الحيوانات التي كانت تكتظ بها، هربت بعد انفجار الحرب الأهلية إلى أفريقيا الوسطى وتشاد، ولم يتبق سوى مراحات (البعاشيم وأسراب دجاج الوادي والحمام المتوحش، والقروود والغزلان والوزين والغرنوق، والخورباج والحلّوف والذئاب وأم تُقدم) وما شابه..

الأشجار لا تزال شاهقة، غنية، كثة.. الدليب، الدوم، المر، العرديب و الغبيش.. الجميز والكبريت وأم قُلُقُل و القمبيل والسنوبر، والهليل والقنا، الخ..

أب نباح يركض، وحيوان قِرب الشجر بجسمه الضئيل، يقفز من شجرة لأخرى، يمتص ثمار اللالوب..

هنا (يضع دائرة) يجيش الوادي بخاطره، بإزاحة الرمال قليلا، يتفتق سلسبيل الماء..

السدود المقترحة على وادي أزوم وصالح وبلبل، طي الأضابير، بفعل التواطؤ والتآمر.. منذ عشرات السنين، ومصانع السكر والبطاطس، وتعليب الفواكه، وانتاج الالبان، الخ.. حلم لن يتحقق..

حتى الصحة والكهرباء طي الأضابير والخطب الخطوب، والغزل السياسي لأرباب النازيين السمر والطائفيين، إلى آخر الأشياء من جنس الفجيعة والدمار!..

من هنا.. هذه النقطة (أم دخن) إلى (رمالية) ساعة بالأقدام؛

وساعة ونصف إلى (رُترت) و ساعتين إلى (قوز بيضة) كبرى المناطق الحدودية التشادية..

ينسى أطفال السلامة الرعاة، أحيانا النار موقدة قرب قري (القِمِرْ) فتحترق البيوت والمزارع؛ فيتدخل عساكر الجيش التشادي ليحسمون الأمر على طريقتهم، التي تفتقر إلى روح القانون والانضباط. هنا تتداخل السلطات بين الشيوخ، داخل الحدود السودانية، العابرة للقبائل والثقافات! وعساكر الحدود التشاديين الهمج.

يوالي سلطان (قوز بيضة) زيارته إلى (كيلى) التي استوطنها الفور والداجو، الهاربين من جحيم الحرب الأهلية الأولى في وادي صالح.

هنا في هذا المكان من الممكن أن يموت الإنسان، لأتفه الأسباب بطلقة عسكري تشادي، ليس بينه وبين القتل أي شيء شخصي!.. فكل شيء بعيد عن العاصمة التشادية مباح!

هذا الخط المتعرج، يربط بين (رهيد البردي) و(عد الغنم) و (بلبل تمبسكو ونيالا). ليتمدد من هنا خط السكة الحديد إلى دار صباح؛ عبر الضعين، بابنوسة، المجلد، الدبيبات، أب زبد والفولة حتى (الرهده أبو دكنة: مسكين ما سكننا) ..

قالت ليمياء:

”يبدو أنك أصبحت كالخال؛ لا ترغب في انتزاع نفسك من عالم الكومندان“..

”وأنت أو لم تسحرك عوالمه؟“

لمح عادل بوادر معركة تلوح في الأفق.. فأخذ عبده الخال وخرجا قاصدين برهان الحبشية..

مدّت برهان يدها بصينية الشاي، وهي توجه برها، لرجل

ينكفى على ملامح كثيبة. وضعت الصينية أمامهما، تهيئهم للدخول في زمن بنفسجي..

كانت برهان تؤجر جزء من بيت شاعر غنائي مغمور، فقد جمهوره برحيل الأغنيات الحميمة، إلى ذاكرة تالفة في (سور وداخل سور)..

عاني الوحدة والوحشة والعذاب.. وحيدا دون أبناء، دون زوجة، سوى حفنة أصدقاء! يأتون يفرغون قذاراتهم المكبوتة في منزله؛ يحركون ساكن عذاباته ويرحلون!

في أوقات انشغال برهان بالعمل في بيع الشاي، أو تجارتها المزدهرة في اللحم الأبيض، يخرج ولا يأتي، إلا بعد أن تكون قد فرغت، من استقبال زبائنها!

يأخذ نصيبه و يشتري شيئا من الخمر والحشيش، يرطب الأرض برزاز الماء، ويحرق البخور، ليتكى بعدها في سلام، على دخان الشيشة والذكريات! كانت برهان قد جاءت منذ السنوات الأولى، لانفجار ثورة التحرير الارتية، وهي صبية يافعة دون العاشرة، عملت بجد و أنهكت جسدها الذي ارتسمت عليه آثار الشهوات القسرية. امتصت الثورة ماء شبابها. لم تكن حبشية، ولكن سار عليها الاسم..

قالت برهان:

”لم يعد الديم كما كان. الجنجويد يهاجمونا في أي وقت. يسلبونا ذهبنا ومالنا الذي نشقى كثيرا للحصول عليه.. بالأمس اعتقلوا كواكب بذريعة الاتجار في الخمر والمخدرات“

”سرعان ما تدفع لهم وتخرج“

كانت كواكب من ذلك النوع الذي يشقى بجسده، المتلطي

كثيرا. لم تستطع احتمال صرخاته و تحفزاته وقلقه منذ مراهقتها
الباكرة، فهربت به لتهدئة توتره المقيم، هنا في الدير!.. عندما
كان الدير ديمًا! وعندما كان الديانة ديامة (حطب القيامة!)
قبل أن تنتاب أبو لكيك الأول نزواته التاريخية الشهيرة،
تلك التي كلفته غاليا، عندما بايع نفسه أميرا للمؤمنين..
قطعت كواكب كل تلك الفيا في والغفار من (سودري) في زمن لم
تكتشف فيه حكومة أبولكيك بعد، اختراع اسمه الإسفلت، ووصلت
الى هنا مراهقة؛ ناهدة؛ ينو جسمها بما يحمل من عذاب التورمات!
فحملت عنها الدهاليز المخملية حينها، (والسرية فيما بعد) أعباء
هذا الجسد العظيم، إلى أن أصيبت بالترهل في بيت برهان الحبشية..

من كافتيريا أتنى انطلقت تطلعات جيل مهزوم، وأحلام أجيال
بائدة! على الصدى الزجاجي لأنخاب متوهمة، على موائد الايدولوجيا
المنهارة، وأروقتها السرية، تبادلت الأجيال أنخابها، وهي تغني حرمانها
في المارتينيكي إيميه سيزار:

(مرحي لمن لم يخترعوا شيئاً؛

لمن لم يكتشفوا شيئاً أبداً؛

لمن لم يكبحوا شيئاً أبداً،

لكنهم ينجرفون منتشين،

إلى جوهر الأشياء،

جاهلين بالسطح.. تتملكهم..

حركة الأشياء؛

لا تشغلهم السيطرة..

لكنهم يلعبون لعبة العالم؛

شررا للهب المقدس،

لحما للحم العالم،

ينبضون نبض العالم نفسه)

قال البنجوس بحزن؛ وهو يللمم كلماته عن وجه عادل:
استولى الزبير باشا على المنصورة؛ وأهداها للخليفة ود نورسين!
وكان عادل ينسحب رويدا رويدا، تأخذه أصداء الخرطوشة التي

انطلقت تسقط الغزالة، التي تلقت بصدورها كل الطلقات..

على نحو مفاجيء، انكفأ جسد صبية.. ذات الصبية التي لا تظهر إلا في الأسواق، دون أن يعرف أحد، أين تغيب أو كيف تقضي أيامها.. ذات الصبية التي رآها في سوق أم دورور.. المراهقة البدوية.. انكفأ جسدها على جسد الغزالة، واختلط دميهما. تلاشى الجسدان في جسد واحد.. توحدتا واتسعت عينا الغزالة على مصراعيها، وهي تغالب النزاع الأخير! لم يقوى عادل على احتمال المشهد، فتراجع إلى الخلف وظل يمشي ويمشي.. هرب من الوادي. ركب القطار متعجلاً العودة إلى الخرطوم. لدى وصوله فاجأه انتحار عائشة..

كان جسدها مسجى على البلاط، ملطخا بالدم، كلوحة سريالية بشعة، وحلم غامض لا نهاية له، حتى نجيل الحديقة، بدأ فاقعا. كان وجهها ذات وجه الغزالة المتمرغة في دمها..

أحس بصداع عنيف يجتاح رأسه..

كانت عائشة قد نهضت من نومها أبكر من عاداتها، نضت عنها ثيابها، مررت أصابعها على الجغرافيا المتحفزة. أفرغت كل زجاجات العطور على البانيو وغطست، ثم اتجهت إلى الشرفة. اصطدمت في طريقها بالخادمة، أبعدها على نحو آلي. كانت الخادمة قد أغمى عليها من رائحة العطور النافذة، المخدرة. وأصابها مشهد عائشة عارية بالذهول!

وعندما أفاق ركضت إلى غرفة الوالدين، الذين لم يمض وقت طويل على عودتهما من اغترابهما الطويل. ركضت والدة عائشة بذعر دون أن تسوي حزام الروب المتهدل. بحث الجميع عن عائشة في كل شبر من الفيلا. ولم يتوقفوا إلا عند سماعهم صرخة الخادمة، وهي تشير بفزع لجثة عائشة المتمرغة في دمها..

هناك على بلاط الحديقة، انتزعت عائشة عن نفسها الحياة..
صديقاتها، قلن إنهن لم يرين وجهها أبدا، إذ لم تكن تخلع عن نفسها
النقاب حتى في الحمام. وأكد عمها الشعراي وصديقه أوشي، وجارات
عمها الموبؤات باللوعة الرواية ذاتها..

كاد رأسه أن ينفجر، فانسل مذهولا بين الجموع المحتشدة، واخذ
يركض لا يلوِي على شيء..

بدت له رحلته طويلة لا تنتهي..

ربت الكومندان على كتفه بلطف:

”انت لا تزال تعاني جرح عائشة“

”كانت خاتمة مروعة“

”انه قدرها؛ لا أحد مثلها يستطيع التحكم في قدره. أنها ليست
مثلك. فأنت آخر (جورنيقا) مهزوم تبقى في (منواشي)! ستسعدك
سلمى وتخفف عنك؛ اقترب منها فحسب.. إنها بداية جديدة“
نعم كأخر (جورنيقا) مهزوم، في آخر الحروب التي لم تبدأ بسنة
سته. يمضي..

يمضي كهذا الجورنيقا ظمئا لحنين ودفء، يغازل جارية
السلطان، كفتى البرقد فيسرب الخصي (الكر) الخبر للسلطان
ويخذل السلطان خصيه (كان معجبا بهذا الجورنيقا الذي يتجرأ
على العبث بحريمه) ويكافئه، بان يهبه الجارية ذاتها. ويعينه
في صفوف فرسانه، فيبلى البلاء الحسن في الحروب القادمة!
ينتصر في (حرب المستنقعات) ويفطن لكمين الرزيقات، فينسحب مع
المقاديم وقواتهم بعيدا، بعيدا نحو الجنوب، شمال بحر العرب!

(كان الرزيقات دائما يحتفظون بزوجاتهم وأطفالهم وممتلكاتهم،

بعيدا في دار (جانقي) المتعذر بلوغها!

تلك كانت آخر الحروب، التي فات فيها الوقت؛ عندما تحرك الزبير باشا شمالا لإسقاط السلطنة، احضر آلاف (البازنقر) والرقيق والمدربين، فحطم الجيش الجيني، وهزم شطة بالقرب من (دارا).

تحطم الجيش الجيني الذي كان قد بدأ في النمو؛ ترعاه أيا باسي زمزم، تحطم تماما في منواشي! ولم يتبق سوى (الكوركوه) و (السومق دوقالا) وبعض (الجورنيقا).

كان آخر الجورنيقا الذين يشهدون؛ على مقتل السلطان في الهجوم الضاري واليائس، في آخر المعارك التي لم تستعن بتعاليم دالي العظيم، فحطمهم برقه..

(طلب علي دينار بعد عدة عقود من سلطات الحاكم الإنجليزي المصري إعادة المنصورة. لكنها رفضت. زعمت أنها أرسلت إلى أوروبا، وأرسلت له بدلا عنها طبلين كبيرين، يقفان شاهدين على زوال آخر، حضارات شعب الوادي العريقة)..

آخر الحضارات منذ منواشي، التي رسمت حدا فاصلا بين بعدين: بين إسلام الزبير العربي؛ البياني؛ القاسي. والإسلام المستوعب في إطار مزيج من مبادئ دالي، و الإفريقية الاحيائية و الغنوصية والعقلانية في العديد من جوانبها..

ومع ذلك تعايشا معا، تحت سلطة عرف دالي القوية، التي لم تهدها سنوات (أم كواكية). قويت سلطة العرف المستمدة من سطوة دالي الأسطورية، ومن حنين بعيد للوادي وغياهب الجبل، حيث تتحاور أرواح السلاطين الأسطوريين..

لم يستطع الحكيم الغريب، الذي يتوهم أنه يعلم شعبا همجيا جاهلا، عادات مدينية، أن يتزوج من كيرا ليؤسس سلالات جديدة

لتجار رقيق جدد، سلالات جديدة على غرار النازيين السمر الجنويد!
استمر الناس يتعبدون أمام الشجر المقدس، عندما يكونون في منازلهم،
ويفعلون ما يفعله المسلمون رسميا!

كانوا يكرهون مزاعم المهدوية؛ التي خربت ديارهم وبعثرت
أهلهم في الأشجار والخلاء والجبال..فانهارت (دولارات ماريا تريزا) ولم
تعد تساوي (كنفوسا) واحدا!

لم يعد المكان هو المكان، ولا الناس هم الناس. مضى ذلك المجد
الذي كانوا يتاجرون فيه مع مصر وتمبكتو، ويفتحون الأبواب للقادمين
من غرب أفريقيا وموريتانيا، ويقدمون العطايا للشناقيط، والسعوديين
والعراقيين بالمحامل السنوية، ويكسون مكة ويطعمون اهلها!
”منواشي كانت بذرة النمو الحاسمة، لمركب من الأفكار والمفاهيم،
ذات الطبيعة الدينية والعرقية“

قال عادل،

الآن الوادي مهجور، فالآبار جفت والقوافل تلاشت في فراغ
الصحراء العريض، تغير دروبها، والقرى على جانبي الوادي اضمحلت.
إلى الوادي كان يأتي الفقرا والتجار الأغراب.. كلهم أغراب. في الوادي
كانت السلطة تجدد نفسها. تخرج من رحم الجبل، روحا من
دالي العظيم. الفقرا والتجار، يخرجون من الفواشر، ليعودوا مرة
أخرى وسطاء بين عالم الوادي المغلق، وعالم آخر واسع من الأفكار
والمفاهيم والمنتجات الجديدة.. من قلب الجبل يخرج (أبو جميزة في
تلك السنوات الضارية، عندما ترنح سلاطين الظل في جبل مرة، أمام
هجوم المهدية الشرس. يخرج أبو جميزة، الفقيه الريفي و الغامض،
ويقود مقاومة شعب الوادي للمهدية، يتقدم بجيشه) دون أن يتصور
أن الطعنة ستأتيه من الخلف ومن ألف خلف!

اختفى الكومندان البنجوس، دون أن يترك خلفه سوى رسالة غامضة، مكتوبة (بالعمار)، على ورق حائل اللون، كذكريات خافتة النبض والحيوية، متلاشية الحياة.

تنهد عادل بوجع. وهو يستقبل ليلته الأولى مع سلمى. لم يكن راغبا الآن في شيء سوى النوم. خلعت سلمى بنطلون الجينز الأزرق. خلعت تي شيرتها الأبيض. خلعت كل ثيابها، وارتدت قميص نوم زهري شفاف. أطفأت النور الباهر، وأشعلت لمبات السهرة البنفسجية، بإضاءتها الخافتة، فسبحت الغرفة في إضاءة هادئة موحية!

أخذت سلمى تسحب أوجاع عادل، وجعا فوجع بمهارة وعذوبة فائقين. همست في رقة:

“طفل سارة من الكومندان أكثر وسامة منك“

فارتدت ذاكرته إلى ذلك اليوم؛ عندما علم بأن له شقيق، بعد كل هذا العمر، الذي مر على البنجوس. فابتسم:

“حتى الآن لا أفهم: كيف ينجب رجل يبلغ من العمر ما بلغه الكومندان؟!“

قالت سارة في ذلك اليوم وهي زائغة النظرات:

“صدقني يا عادل أنا حامل من الكومندان“

كانفجار مباغت للضوء والبرق والرعد. كإنشطار مفاجيء للسماء. كحزن صحراوي عاصف بالرياح والأنواء، يحمل مخاوف الدنيا كلها. كان وقع الخبر بمثابة الصاعقة!

كانت حكاية الكومندان مع راوية تتجدد مرة أخرى أمام ناظريه..
تخرج من رحم الماضي والتساب يهدم المدينة القديمة فينهد الجسر العتيق..
مرة أخرى يتسلل الكومندان لعنات.. مخبأة في قمام مرصودة
منذ آلاف السنين.. يرمي لعنته في فضاء المدينة، التي تمضي لسهرتها
للتو.. ويمضي..

لفهما صمت الغسق الشاحب، و السكون العميق الذي هيمن
على غرفة عبده الخال. فتبدت الذاكرة السرية عن محمولاتها،
وانداحت ظلال غائرة في البعيد..

تنهدت سلمى وهي تضيف:

”جلس الكومندان قربي. جاء صوته عميقا، عميقا كتنهيدة تخرج
من أغوار حلم جميل، كآهة عذبة يبحتها وتر مكتوم. بذكرى حميمة
لعاشقين اصطليا بنار الوجد، وتجمدا في لحظة واحدة بين نقر الوتر
وأهاته الشجية.

كان الكومندان يتماهى في كل شيء، في فضاء الغرفة بأنفه ذاته،
الذي يخترق أحلامي في النوم واليقظة!

قبل قدومه بوقت طويل كنت أراه. وفي تلك الظهيرة قبل أن
يجيء رأيته وأنا أظأ الحمام. شعور غريب بين الصحو والنوم انتابني
لحظتها، وأنا أتعرى للماء. كنت كأني اكتشف جسدي للمرة الأولى:
موحشا، يابسا، موغلا في العذاب!

استعدت واستغفرت وتحصنت. لكن اخترق الكومندان التعاويذ
والحصون، سال مع الماء، وبللني. تسلل عميقا عميقا.

كنت أتوه وأغوص في خدر متقطعة الأنفاس. وقلبي ينتفض في
عنف. لم اعرف كم مر علي من الوقت. وأنا على هذه الحالة من

الغفران والصفح.

جففت نفسي. ارتديت ملابسني، ودخلت غرفتي، كنت كالمنومة مغناطيسيا. وأنا أرى الكومندان يطوقني، يحاصرني. تناثرت ثيابنا في فضاء الغرفة، وتماهت في أخيلتها، وبدا لي الكومندان شخصا آخر.. فتيا يحمل جسد الكومندان البنجوس!

شخص اعرفه ولا اعرفه! غبت فيه تعصرتني عضلاته.. تخدرني رائحة العرق. كنت مأخوذة دون إرادة. دون وعي. دون هوية. دون تاريخ. أو جغرافيا، كالحلم. الزنخ، الحمى، الحكايا، رغوة الصابون.. وحدي في المكان المبلبل بوهم - ربما - لذيذ يفرض سطوته على الألم العذب، الذي كان يسري شفيفا في عروقي. ولم يكن للكومندان أثر. كيف حدث ذلك: لا أدري! هل حدث فعلا: لا ادري!..

تأوهت وأنا أحاول تجميع نفسي كالمخبولة. تحصنت مرة أخرى واستعدت واستغفرت، وأطلقت بخور اللبان الضكر ليطرده الشياطين. ومع انعقاد الدخان وتسله خلايا الغرفة، بدأت الأخيلة والحلم والذكريات، تتلاشى في ذاكرة الجدار لتغادر الغرفة مع دخان اللبان الضكر. كان وعيي قد عاد. حاولت أن أتأكد مرة أخرى. أن الأمر لا يتعدى أضغاث الأحلام، لكن وجدت أيقونته معلقة على عنقي!

قلب عادل الأيقونة التي على صدر سارة بعينيه. ذات الأيقونة، التي كان الكومندان البنجوس يرتديها بعناية تحت قميصه!

”إذن كنت آخر من رأى الكومندان قبل أن يختفي؟“
صدقني لم أكن في وعيي. ولم أصدق إلا بعد وقت متأخر من الحمل“

”أنت آخر ضحايا الكومندان. حتى وهو يختفي عن عالمنا لا يريد أن يمضي، دون أن يترك أثرا أكثر ترويعا، من حكاياته التي أغرقنا بها وهو بيننا!“

”إذن تصدقني؟“

”لا أتصور أن لديك مبرر للكذب في أمر كهذا.. ماذا ستسمين

الصغير؟!“

”عبده الخال“

أطفا عادل لمبات السهرة البنفسجية. وضعت سلمى رأسها على صدره. أزاح شعرها عن عينيه. كانا مهدودين ومنهدين. خارجين لتوهما من حلم دفيء ولذيذ. تاركين خلفهما صوت الكومندان العميق جائسا في دهاليز الماضي و(كراكيه) السرية..

سحبت ماما حليلة عبده الخال، من تأملاته وهي تدخل غرفته،
تحمل كيسا صغيرا أسود اللون، أغلق بالدبابيس بعناية فائقة. مدته
له:

”تركه لك الكومندان انت وعادل، قبل أن يختفي بوقت قصير“

”يبدو انه كان يخطط لاختفائه الغامض، منذ وقت مبكر“

أراد الخال أن يفض الكيس، فعاجلته حليلة بحسم:

”افتحه في حضور عادل“

تراجعت أصابعه المرتعشة. دس الكيس في جيبيه، وشعر بما ظل
يشعر به دائما، منذ وقت طويل.. بان الكومندان يخبئ مفاجأة
غامضة!

دخلت لمياء، فانسحبت حليلة:

”هل فكرت في الأمر؟“

”أي أمر؟“

”الطلاق!“

تكشفت لمياء عن أشياء لم يكن يراها فيها؛ عندما أحبها، لم يكن
يدرني أن لديها كل هذه القدرة على البغض!

”وطفلي الذي تحمليه في بطنك؟!“

”لا تسأل عنه. فأنت لن تستطيع إعاشته حتى“

فخرج. مضى مشتعلا بالأحاسيس والأفكار المتضاربة، إلى أن وجد

نفسه في كافتيريا أتني. لا يدري كيف.. أرخى سمعه للحوار الدائر على المائدة المجاورة، عندما قفز اسم الكومندان صالح البنجوس إلى سمعه:

”كان البنجوس شخصا غريب الأطوار. أفسد احد أهم الانقلابات في تاريخ البلاد الكبيرة؛ واعتقل بسبب انقلاب عنصري فاشل!“

”انقلاب المرتزقة؟!“

”أيوه..“

”اهو لا يزال على قيد الحياة؟!“

”ربما؛ فمنذ ترك الجيش لم يره أحد“

”الغريبة انه لم يحاكم عسكريا، فاسمه لم يرد في التحقيقات الواسعة، التي طالت كل الوحدات؟..على الرغم من أنه كان سرا المتهم الأول. أعيد إلى الخدمة، وتقاعد تملأ صدره النياشين والأوسمة!“

تأوه الرجل بعمق:

”ذاك زمان الرجال الحقيقيين. لقد كان الرجل مقاتلا جسورا، الجيش الان اصبح لكل من هب ودب، حتى الجنجويد!“

تساءل عادل وخوف خفي ينتابه. أهى مصادفة أن تسوقه قدماه؛ في هذه اللحظة بالذات إلى هنا ليسمع هذا الحوار؟! في ذات اليوم الذي تعطيه فيه حليلة، أخرج ما تركه الكومندان، قبل أن يختفي بغموض؟! أهى مصادفة أن يجيء هذان الشيخان، إلى أتني بالذات التي يندر أن يأتي إليها، مثل من هم في مثل سنهم؟! شعر بصداق يشقق صدغيه، ويجعل رأسه نهبا لأفكار متضاربة: هذا هو الكومندان البنجوس؛ يربطني بعالمه شيء غامض على الدوام!

انتزعه صوت عادل من أفكاره:

”لم أجدك في البيت. وصحت توقعاتي أنه لابد انك هنا“

”من الجيد أنك أتيت لترى آخر ما تركه لنا الكومندان“

نظر عادل إلى الكيس الأسود الصغير، الذي أخرجه عبده الخال من جيبه بعناية ومد له..

امسك عادل بالكيس بأصابع مرتعشة. نزع الدبابيس وأدخل يده في جوفه. أخرج يده. كانت تمسك بأيقونة فضية، عليها نقوش غريبة..

”إنها تشبه القلادة التي على عنق سارة؟!“

خرجت يده أيضا بورقة حائلة اللون. تمعنا في الأيقونة والورقة؛ التي أخذ عادل يفردها بأصابعه المرتعشة. كانت مكتوبة بخط أسود دقيق، دون تاريخ محدد يشير إلى وقت كتابتها، بل كانت تبدو كوثيقة تاريخية. قرأ بصوت بطيء:

”سألج الموضوع مباشرة. ربما أدهشتكم تلك الحكايات، التي كنت احكيها لكم عن ساورا وكيرا لنقي و سورنق، وممالك الوادي البائدة. ربما تعاملتم معها كحكايات طريفة ومسلية، عن أشخاص آخرين، هم ليسوا انتم. أو لا وجود لهم أصلا. ولكن كل ذلك ليس صحيحا.

فما كنت احكيه ليس حكايات. بل تاريخ أسلافكم. لا أدري لماذا أشعر بالاضطراب، وأنا أقول لكما ذلك. تسألان الآن عن الأيقونة. إنها لك يا عادل، ستحميك بأسرارها، فهي أيقونة التوأمين ابنتي أعجوبة. هذه أيقونة سابا التي اورثتها لكيرا لنقي، فأعطتها هذه لحبيبتها.. هذه الأيقونة من مقتنيات جنيات الجبل.. إنها لك.

والذي لا تعرفونه، انه لا يوجد شيء اسمه (تاريخ) فأولئك الذين مضوا، هم نحن ذاتنا في وقت ما.. ونحن الآن هم في زمن آخر.. ربما.. أن لم يكن في ذات المكان الذي عاشوا فيه.. بنقا.. سورنق..

سولونق.. كوي.. شبونة.. نيرديس. هؤلاء هم انتم.. الأصدقاء.. وانتم تعرفون ذلك أكثر مني، فأنا لا أتعدى أن أكون العجوز دوره، الذي يرعى الفتيان الملكيين ..“

ختم عادل قراءته:

”لابد أن والدك قد جن!“

”ربما يكون مصيبا؛ فنحن في أتني؛ وهذه مملكة الجبل والوادي“
ارتدى عادل الأيقونة، ونهضا يغادران أتني..

لأول مرة يشعر عبده الخال، بكل هذه الوحدة. بعد أن ذهبت لمياء، تحمل طلقها البائنة. نام نوما متقطعا، لا يخلو من الكوابيس، وأضغاث الأحلام..

رأى سابا تهوي من حالق القصر. تغوص في ارض الوادي؛ فتنداح الرمال عن رهد الخيل!

منذ اختفى الكومندان وغادرت ليمياء حياته؛ لم يعد أصدقاؤه، يجتمعون بغرفته كما اعتادوا، منذ آخر اعتقال. خيم مناخ من الانطواء على الجميع!

حتى الغرفة نفسها انطوت على نفسها! وشجرة الجهنمية العجوز، المتكئة على الجدار الخارجي للنافذة، اكتست بلون كئيب، والستائر مسدلة على الباب الموارب، والنوافذ مغلقة.. الصحف والكتب والمجلات مبعثرة في كل مكان. المكتب مزحوم بأشياء تذكارية عديدة. لكل شيء هنا قصته الحميمة، أو مأساته البائسة.

صار البيت كله طاردا لعبده الخال، بأخيلته وأشباح ماضيه القريب، ووحدته القاتلة، التي تجعله يشعر بأنه لا ينتمي لهذا العالم المتشطي حوله.

لأول مرة منذ وقت بعيد، بدأ الأصدقاء يتوافدون.. خفق قلب عبده الخال بشدة، عندما جلست روزاليندا إلى جواره! في هذه الغرفة تشكلت حياة جديدة أخرى، من إنكسارات الماضي وتمزقات الحاضر، تشكلت من الأحزان، التي تتقلص وتنقبض وتفيض، من وجوه عرفت اليباس والغبار والعكرة. مثلما عرفت الحب والفرح النديان، و الضحكات الصاخبة، والناعمة والهمس الحميم!

إذن هم الأصدقاء يتجمعون من جديد، ينضون عن البوح القديم تلافيفه.. فيتجدد بوح عميق في خفر روزاليندا، ونظراتها المختلصة إلى وجه الخال المتعرق.. فينبض فيه شيء من بوح نظراتها، ويمضي كدبيب النمل..

القسم الثالث

وقائع ليست للتدوين

الشوارع تكاد تخلو من المارة، وقهوة عبد الواحد توشك أن تغلق أبوابها، فلا أحد سواهم تبقى، من روادها. في هذا الوقت المتأخر، من شتاء يناير القارص.

فقط وحدهم لا يزالون يشربون، مزيدا من الشاي الكشري ويتهدون بارتياح، وهم يقلبون جوازات سفرهم، الصادرة من (الصليب الأحمر)، مرارا وتكرارا، وبعد لا يصدقون أنهم أخيرا سيغادرون، بعد سنوات من معاناة اللجوء وعذاباته..

«نعم أخيرا سنغادر!»

قال عبده الخال، وبصره يتنقل بين وجهي مناوة ونواي، اللذان بدوا له مضيئان لأول مرة، منذ وقت طويل!

لأول مرة يبدوان مشرقان، من بين كل أعضاء الشلة، منذ قرروا جميعهم، في ذلك الخريف البعيد، قبل أكثر من ثلاث سنوات في غرفته، التي تطل نوافذها على الجهنمية الحمراء. مغادرة البلاد الكبيرة، يزمعون الهجرة الجماعية.

لأول مرة منذ وقت بعيد، في ذلك اليوم حين بدأوا يتوافدون. عندما جلست روزاليندا إلى جواره، واخبرها الخال بقراره في الهجرة، فترددت قليلا، ثم ما لبثت أن قالت بحسم:

«سألحق بك»

في الأيام التي سبقت ذلك كان الخال قد قام، بأخذ حليمة إلى الانقسنا. وهو لا يزال يعاني الفراغ، الذي خلفه الكومندان البنجوس وراءه.

كانوا جميعا قد بدوا يعانون متاهة الكومندان، ويرغبون في التحرر منها!

وفيما كان الجميع مقتنعا بالهجرة، رفضت سلمى أن تستجيب لرغبة عادل في السفر. فظل ممزقا لعدة أيام، وعندما فشلت في إقناعه بالبقاء هجرته، عله يشعر بفقدانها فيستجيب لرغبتها في البقاء. الآن تتشكل حياة جديدة أخرى، من إنكسارات الماضي وتمزقات الحاضر. تتشكل من الإحساس بالتحرر من الأحزان، التي تأخذ في التقلص أكثر من أي وقت مضى، فتنبسط وجوههم التي لطالما عرفت اليباس والغبار والعكرة. مثلما عرفت الحب والفرح النديان، والضحكات الصاخبة، والناعمة والهمس الحميم.

وفيما هم يتجمعون الآن، للمرة الأخيرة من جديد، ويقررون السهر في قهوة عبد الواحد، حتى مطلع الفجر، ينضون عن البوح القديم تلافيفه.. يتجدد بوح اخر عميق في خفر روزاليندا، التي تنتظر الخال في هذه اللحظة بالذات، في شقتهم الصغيرة، يتأكلها نفاذ الصبر، في انتظار عودته..

عندما لحقت به، واستقبلها سألته هامة:

«والآن ماذا سأعمل هنا في هذه البلاد؟!»

«حدثت عنك دكتورة داليا، وقالت إنها بحاجة إلى ممرضة. لا تحملي هما.. ستمضي الأمور بخير..»

وجهي نواي و مناواة الآن مشرقين، زال عنهما غبار سنوات الانتظار العجاف! لاشيء يتبدى على محياهما، سوى الرفيف الخافت لقلق مزمن، وجراحات غائرة، لا تزال أصداء منعطفاتها الحرجة، تدوي في الذاكرة الجماعية، للأصدقاء أفراد الشلة.

كان كل يوم مر خلال السنوات المنصرمة، يساوي عمرا بأكمله من العذاب.. فكانوا في جلستهم تلك. كأنهم يجتمعون يسترجعون ما مر بهم، من افراح واحزان ومواقف، في مناخات الغربة القاهرية. وكأنهم يودعون القاهرة.. باستعادة ذكرياتهم فيها! فتنهض أحداث الجمعة الدامية، كأسوأ ذكريات المنفى، التي لن تتكرر أبدا في أي مكان..

كان مناوة يرقد مصابا جراء تلك الأحداث، في مستشفى السنابل منشية الصدر، قبلها كانوا جميعا قد افتقدوه، وتملكهم رعب كبير أن يكون ضمن القتلى، فلم يتوقفوا عن الاتصال، بكل من يستطيع أن يؤكد وجوده على قيد الحياة، اتصلوا بأسماء، الكوماندر حمدان، سمارة.. لم يتركوا احتمالا لم يتعاملوا معه.

تأوه عادل:

«كانت تلك أيام الرعب والمخاوف والظنون»

فابتسم عبده الخال:

«تأبي القاهرة إلا أن تودعك بلعناتها يا نواي»

وأردف:

«لكن ما الذي جعلك تذهب في ذلك اليوم بالتحديد؛ لمكان

الاعتصام؟!»

«شعرت بضرورة التضامن معهم»

«لم تتصور أن في اليوم الوحيد الذي تقرر فيه التضامن معهم؛

وتذهب. أنك ستكون ضحية مجزرة كهذه»

«حتى لو كنت اعلم لكنت ذهبت أيضا»

يومها حكى نواي؛ وهو على سرير المستشفى مضعضعا:

«كانوا زهاء الثلاثة آلاف لاجيء من الجنسين؛ ومختلف الأعمار؛
يحتمون في الساحة الضيقة لحديقة مصطفى محمود، وفي الساعات
الأولى لفجر الجمعة، هجم أكثر ممن ستة آلاف جندي مصري، بمدافع
المياه والهراتات!

«رأيت بعيني، بعد الهجوم مباشرة، أكثر من مائة وخمسين جثة،
في الحديقة فقط»

بعد الهجوم بثلاث ساعة. مات البعض في الأتوبيسات، أثناء نقلهم
لمعسكر دهشور على طريق الفيوم، ومات البعض في المستشفيات
متأثرين بجراحهم»
قال مناوة مازحا:

«ونجوت أنت بعد كل هذه المجزرة؟!»

«للقطط سبعة أرواح»

مضت إذن تلك الأيام، والآن بطريقهم إلى بلاد أخرى، ربما يكون
فيها متكأ لما خلفته القاهرة من أحزان، وربما تدهمهم. بمزيج آخر
من أحزان لا تخطر على البال!

غاب عنهم عبده الخال، متوحدا في خواطره الكثيفة؛ وابتسامة
حميمة لا تفارق شفثيه. همس مناوة:

«لابد أن روز تنهض الآن في خواطرك»

التفت إليه الخال:

«إنها روز بالفعل»

كانت روز اليندا.. كبرق يشع فجأة، تطل من غيب غامض.. حبلى
بقلق العرافات وتوترات المغنين العابرين، ببوح «القماري» ومواجد
النوارس المهاجرة، في مساءات مبهمة للقيام مؤجلة..

كإيقاع حزين في حناجر الشعراء الجواله، أطلت روز: بداية للأشياء
ومنتهاها، وسر حميم يضيف إلى الوجود، فصلا آخر في قصة الخلق
التي لم تبتدئ.

قالت، فقال.. تنهدت، فتنهد، وحين طال الصمت، وتمدد الانتظار على
الشرايين المنهكة، انتحى كلاهما طي الهاتف المتقطع الصغير. في الفضاء البعيد:
«البطاقة انتهت»

وغرق كلاهما في النوم؛ يحلم بمدى البعد و سر المسافة ومنتهى
الشوق، والاقتراب أقصى تفاصيل الوريد.

أول مرة التقيا في غرفة الجهنمية الحمراء (عندما جاءت برفقة
لمياء). تبادلنا حديثا متحفظا، عن ماض لم يثمر، لكنه ظل مؤرقا ككل
الذكريات، الأشد جمالا وألما.

وذات أسى دفاء، التقيا لينشطر كلاهما، وهو يحمل في غرته شيئا من
ملامح غامضة، وربما أحاسيس نائية! أقصى تلافيف القلب.. أدني الزحام..
هكذا افترقا ومضى كلاهما في الاتجاه المعاكس. كان زواجه من
لمياء.. إيغالا اخر في اغتراب يطول، وهجرة مفعمة بالحنين..

لكن ظلا كلما التقيا يشعران بأنهما، مثقلين بالتباريح وبالأيومي و
أخوة الدم والتراب، والصبر على الآخرين والأذى، و عالم البنجوس الذي
يمدهما بالتماسك.

منذ طفولتها تبدت روز كأنشودة غجرية، مترعة بالحنين والأسى واللوعة.
ففي حصارات الأيومي، تشبعت بهذا التمرد المنطوي على ريح عاصفة.
هبت لتجتث الحكايات السائدة.. مشرعة أشرعتها، كأخر السفن
المغامرة، في أرخبيل غامض، ينطوي على الحكايا القديمة، وحطام
البيارق وذكرة الفراغ!

مضت (هكذا).. تحلم بيايسة في مكان بعيد قريب، تقيم عليها مملكتها ضد الحصار. رفر قلبها لحبيب صديقتها، وأدركت أن ذلك قدر شائك، دونه شوك القتاد، والمواجد والدموع، وظلت تراقب انجلاء المعركة، لتضع حدا لعذاباتها، التي تخبئها كسر خبير.. نعم كان حبها المنطوي على شرنقته الفولاذية، بمثابة عذاب لا يطاق..

وفي كل هذا الوقت، كان الخال كالغريق، إلى أن قرر الاقتراب، بعد أن مضت لمياء مخلفة وراءها كوايبس وأضغات الأحلام.. فلفحت روز وجدانه بنارها.. ولفح قلبها بلظاه ومضى، ككل العابرين في الأمكنة العابرة، قبل أن تبدأ المعركة!

وجه روز الآسي؛ المترع باللوعة والنوستالجيا العذاب؛ انطوى على عاصفته ليجتث الحكايات القديمة، مشرعا أعاصيره لأحاديث لا تبقي ولا تذر..

حين بدأت حكاية الخال البعيد مبتدأ وخبر، في النهايات الفاصلة بين الحب والتردد. المكر والمناورة. الحكمة والاندفاع. كانت الشمس قد توسطت السماء وانقشعت الغيوم وامتلات شوارع القاهرة بالحب..

ومن ناصية الشارع، الذي يتوسط المدينة، هاتفها الخال، فردت.. ولم يتكرر الصدى.. ومضى الوقت أثقل ما تكون الخطى.. أستودع الخال الريح كلماته النادرة، لتهب عليه وتمضى..

قلق الخال، قلق روز. ووجع الخال وجع روز.. وبين الاحتمالين احتمال أن يلوّن الرمادي، حواشي الأفكار وهوامش الأحاسيس، ونافلة القول: المحبة.. زاد سيدي البنجوس قوت الزمان؛ البنجوس الكومندان.. أجاب الخال فردت روز، وأكد مفتاح الكمبيوتر آخر كلمات الحنين المرسل، إلى البلاد الكبيرة.. إلى روز تجيء بالبشارات السعيدة..

إذن كان الخال مزيجاً من متناقضات روز، و البنجوس، يمضي مرتحلاً عبر السباسب والوهاد، لتسقط النسوة الغريبات والعابرات، ويتلاشين في الفضاء الرحيب، لذاكرة المكان المتغير في الزمان الذي لا وجود..

مضى الخال خارج الوجود المقيم، لآخر النسوة المغادرات.. قسوة الخال على لمياء، هي سحر روز التي تخرج لتوها، من ذاكرة البنجوس..

جبروتها في النفي والإقصاء، لإشادة مملكة من هديل اليمام، ولبن الطير، وألوان قوس قزح وبوح (الخال/البنجوس) طلسماً مرصوداً في الديانات القديمة، التي جاءت لتجمع العشق والعشاق، ليشكلاً كلا واحداً!

إذن كانت روز هي الخال ذاته.. فكرة في خاطره.. خاطرها، ربما.. بوحاً لأزل العبارة يشيدها الحرف في أسراره، مختطاً طريقاً غامضاً..

كابد الخال في وحدة روز حياً جديداً.. نهض في عذاباتها، ومضى مخترقاً أحلامه، لتتوغل خاطره، وتشيد عالماً من الفسيفساء والأطفال، وانشودات الرعاة و أغاني الغجر..

كان الخال روح روز ذاتها. وهى جسده الذي افتقده! حين بقيت قبل اللحاق به، تشيد مملكتها ضد الحصار. فحوصرت في العابر المزمّن.. وانشطار الذات. نهض الخال جوهرًا لهذا العابر، أزلياً في هذا المزمّن. وكطاقة التحام جبارة، اقتربت الذات من ذاتها. لتلتئم انشطارات الخال روز..

أدرك أنها وجهه الآخر وأدركت أنه.. وأدركا أن لا محالة. ما كائن سيكون! في عالمهما معاً.. نسيا رفقة الماضي وآلامه.. و حزن الليالي الطوال. عذابات الغناء الهزيمة وانكسار الوقت في غربة الذات. وتشظيه إلى وحدات، ملأى بالحرمان والذكرى البائسة.

هاتفته روز وقالت فقال.. وقال فلم تقل.. كان الحلم يسوقهما.
إلى مملكتهما البعيدة.. يستمدان من تهردهما المتلاشي، وقودا لمآلات
رحلة حبل، بالوعد والمواعيد والاتقاء.

عندما وصلت كان خارج القاهرة..

أولى لقاءاتهما منذ غادر البلاد الكبيرة، كان قريبا من الفندق الذي
هبطت عليه من الخرطوم، في أحد الصباحات الباردة، من موجات
فبراير القارسة.

لم يشعر لحظتئذ بالبرد، فيده المحاطة بكفيها الناعمتين، تدفئانه
وتزرعان فيه أحاسيسا، لا أول لها ولا آخر..

كان قد اتصل بها من محموله، وجلس ينتظرها على أحد البنشات،
المطللة على مشتل ناهض عند ضفة النيل..

ما أن جاءت وجلست قربه، حتى تشتت افكارهما، وضاع كل
ما أعدها من كلام، ليبقى الصمت فقط معبأ بالدلالات، و محاصرا
بالرموز. التي تفوق احتمال المكان!

غابت عند مدخل الفندق، دون أن تلتفت.. تلملم حاجياتها
وتهمس، بما تسرب إلى رئة المكان، ليتنفس أشجانه في زفرة ملتبهة!
وهما في الطريق إلى شقته الصغيرة؛ في الجيزة قال لها:

«لم أكن أتوقع اتخاذك مثل هذا القرار!»

«أينما تذهب سأكون وراءك»

كانت روز قد جاءت بعد حنين طال؛ محملة ببشارات انشودات
خريفية يانعة، وكوعد خصبه زمن غامض. فخص به مكانا اشد غموضا..
بحث عنها في الزحام حيث تنتظره عند محطة المترو، يتفاعل فيها
الشوق والحنين والترقب، ليعطى انتظارها معنى كونيا عميقا ومتحفزا..

طعما متوترا برائحة القلق الخرافي، فلا تستشعر القادمين
والذاهبين.. المارة والباعة المتجولين..

رغم تفرسها في الوجوه الموسومة بالضجيج، والفوضى والارتباك..

تبحث في هذا الركام عن وجهه الأليف.. وجهه الذي تركته خلفها
في الخطابات والصور، والرسائل الإلكترونية..

وجهه الخارج من الصمت إلى الصمت.. أمامها.. حملته طيفها، عله
يخرج من الزحام فجأة، مبتلا بالوعود والمواعيد..

في غرفتها بالفندق، تلمست ذكرياتها القادمة.. تحسست مشاعرها،
وهي تلقي ببصرها على النيل، المتململ أقصى حدود الشتاء، نافذة
لحب يحيى في الأزل، نافذة تدخل منها عروس النيل إلى عرش الخصوبة،
يحملها الملائكة الكروبيين. لتدفء الجنة بالشجن. وتأخذ من عذوبتها..

تنسج على الكورنيش الممتد كالأفعوان للربيع، جلدا جديدا لهما،
وهما يمارسان لعبة الحياة. البحث والخصوبة..

نضت عنها ترقبها، وهي تضغط أزرار هاتفها الأثوى الصغير:

«لقد وصلت بطائرة المساء»

«واحشاني موت»

القاهرة مدينة غريبة عليها؛ لأول مرة تطأها؛ غامضة ومجهولة
كما تخيلتها. حية ومربكة ومرتبكة كما تراها الآن!

يربكها انتظارها له بهذه المحطة.. تربكها معاكسات المراهقين،
ونظراتهم المتسللة إلى كنوزها.. كنوزه.. يربكها دفئه الذي يحاصر كل
ذرة بكيانها.. تربكها كل التفاصيل: الترقب. الحذر.

كانت أشد توترا منه، عندما اتصل بها أكثر من ثلاث مرات، على
الموبايل يسألها أن تحدد موقعها بالضبط:

«في أي مدخل من مداخل المترو يا روز؟»

وهول بين المداخل المتباعدة لمحطة السادات كالساعي بين الصفا والمروة!
لم ينم أثر مها تفتها له.. ظل منتظرا هذه اللحظة، التي اشتاقها
منذ وقت طويل، وهو يستعيد المكالمات الطويلة منذ الصيف
الماضي، عن الذي جرى معها ومعه.. عن الغربة وحكايا لمياء و الليالي
الطويلة.. عن الحنين إلى وطن في الدفء.. عن دفء لذيذ في ليال
الشتاء الباردة..

في السادسة صباحا بالضبط أزال لحيته، وغسل عنه أثر الخمر
والنيكوتين.. أعد لنفسه قهوة ثقيلة. ارتشفها بتوتر. وهو يلاحق
عقارب الساعة، التي تمضي في اتئاد، و ينقل بصره بينها وبين سماعة
الهاتف، إلى أن جاءه صوتها من الجانب الآخر:

«أنا مستعدة للخروج»

«انتظريني في السادات»

تعطر بعطره المميز وخرج..

أحبها كما لم يحب من قبل.. حاصرته بدفئها وعذوبتها وهذت كل
القلع التي يحتمي بها.. داهمته خارجة من تلافيف ماض حميم،
التقيا فيه بهدوء، وعلى مفترقه مضيا في صمت جارح..

لكنهما ظلا موسومين، بذاكرة الجروح الحية. المتجددة كسجن
ممتد، وحنين لا يطويه الزمان ولا المكان.. كالمطلق خارج التحولات..
خارج التغيير.. ففي المنتهى يتبدى كروحين لنبيين زاهدين، يرتقيان
مدارج المحبة والسلام!

اقتنصتها عيناه من بعيد عند مدخل المترو.. كألهة يونانية؛ تبتد
روز عن سحرها العميق ذاته..

و كائنين محملين بحنين الأرض لأشواق السماء. احتضنها بقوة دون
أن يأبها للزحام!

كانا حاضرين في الغياب، غائبين في الحضور.. و مغيبين في إغماء
طويل، لم يستشعرا النظرات الدهشة، للناس الذين التفوا حولهما..
سحبها من يدها إلى داخل المترو.. كادت المحطة تفوتهما.. كانا
هائمين في.. في فضاء هيوولى شفاف، يؤدى إلى الأرخييل الذي بداخلهما..
بشقتة الصغيرة في الأندلس أجلسها على حجره.. ناما بعد ذلك
متصالبين.. يصلبان حرمانهما.. عجب الزمن. جور الناس، وقسوة
الحياة.. خواء الغربة وألم الذكريات..

يصلبان اوجاعهما المقيمة في وجدانيهما المنهكين.. اوجاعهما الثاوية
إلى عمق سحيق في الخلايا والعصب: ذاكرة لشجن أزي وحنين مقيم
كأسرار إلهية، ومواجد نبوية راحلة في الأبدية:

«طوبى للغرباء!»

همس.. فتأوهت.. كانت نيرانهما تزداد اشتعالا ولا تخبو.. وكان
ترقبهما لاستقرار نهائي يشعل في القلب أشواقا لا تنضب، كالأتون.
اشتعلت الغرفة بالحميمية، بالتوتر، بالقلق، بالانصهار. تتناثر بقايا
صور فوتوغرافية، توقف فيها الزمن عند لحظات نابضة بالوجد والمواجد.
الآن تتداعى كل الذكريات، وأضواء الشوارع، المقاهي، المحلات،
تبدأ في الانطفاء شيئا فشيئا، و قهوة عبد الواحد تغلق أبوابها، تودع
الأصدقاء، ربما إلى الأبد.. والقاهرة تكاد تصاب بالصمت على مشارف
الفجر، الذي تبدأ شعاعاته الأولى في التسلل ببطء.

كانوا قد افترقوا في ميدان رمسيس، وهو يحث خطاه البطيئة إلى
شقتة الصغيرة، يقلب في ذهنه، التبريرات التي يمنحها لروز، عندما

تسأله بعد قليل عن الأسباب الفعلية لتأخره حتى الصباح..

تخطر على ذهنه جلساته العلاجية والحوارات المبتسرة مع دكتورة داليا، يخطر على ذهنه كل شيء، وخطاه ترتقي سلم العمارة، تقوده إلى شقته الصغيرة.. قال عادل في ذلك اليوم:

«يبدو أننا جميعا بحاجة لعلاج نفسي»

فانقبضت عروقه وتوترت أعصابه. و صوت دكتورة داليا يأتيه هادئا؛ عميقا ومؤثرا كصوت روز:

«استرخ يا عبده وأهدأ»

تعاود الطيبة الجلوس إلى مكتبها؛ بعد أن توقف جهاز التسجيل، وتشغل موسيقى هادئة، كالعادة ثم تضغط على الزر أمام مكتبها، فتدخل روز. وهي تعمز له بطرف خفي كعادتها، وهي تحمل إليه كأسا من عصير الليمون البارد، تضعه أمامه..

وتتركه يرحل إلى عالم هارب، يحاول الإمساك به، حيث يتراءى له الكوماندر حمدان، مناوة، عادل، نواي، سمارة..

تترأى له قصص المنفى والحكايات والأحاديث الملتاعة، ويتأوه.. إذ ينتصب أمامه الكوماندر حمدان، والشلة كلها مجتمعة في الصالون، تحاول استرداد نفسها من فتنة أسماء!

تفتح روز باب الشقة، عندما تسمع وقع خطواته على السلم.

إنه الحنين إلى مكان حميم، بذاكرته حيوات نهضت في الأسى. واللوعة والذكريات..

ومع الحنين تتدفق طيوف الماضي، الذي ولى في فضاء الغياب، كالحاضر الذي يتسرب حثيثا، كماء المطر في شقوق ارض زراعية بكر.. نكتشفه فجأة دون سابق إنذار، بتسربه الذي كنمو النبات، لا مرئي..

يجابهنها بنموه فجأة!

«إنها القوانين السرية للطبيعة!»

مع الحنين يطل وجهها البعيد، ملفوفا في غلالة من حمرة شفق
المغيب العذاب:

«تلك لمياء والدة طفلك؛ محض غروب شقي.. ذكرى تحاول
نسيانها، أو تحاول تذكر بقاياها.. بقايا ماضي التهم الوجدان.. حنى
القفا، وخط على الوجه أخايد غائرة، وجراح في أغوار الروح.. جراح
أعمق من خيال أكثر الشعراء كذبا..

يتقوس الظهر وتنكفيء المسافات في اللانهاية، كالأرض الفراغ..
العريض.. العريض..

ها أنت الآن تتذكر شارع النيل، الذي يمتد من القلب حتى أقصى
تخوم أم درمان.

تذكره من هنا، حيث خرج النبي موسى بعصاه بشق النفس،
ولو بقى قليلا لخرج دون عصاة، أو لم ينجح في الخروج! وها أنت
تشك: أن في استطاعتك الخروج.. فهذه بلاد الداخل إليها مفقود..
مرت عليها جحافل الغرباء عبر آلاف السنوات . مضى الغرباء، وبقيت
أل.. عاهرة.. كما هي منذ عهد النبي موسى، أو يوسف أو.. إلى آخر
الأنبياء الذين تواطأ عليهم الصمت..

تخرج من شارع طلعت حرب، تجتاز الشوارع الدائرية والمتقاطعة،
حتى تبلغ شارع محمد علي، المفضي إلى القلعة، التي تشظت في فضاءها.
ذاكرة المغامرين والغواني، فحملت هذه الذاكرة نقوشا لأمجاد مضت.

نقوش باهتة، كأثر دارس لحياة تلاشت بكاملها في فضاء المكان،
لم يبق منها سوى الرائحة المعطونة في صدى بعيد، بهذه الوجوه

البائسة للناس وتهرؤات الجُدُر..

تدخل شارع عبد العزيز بحذر، وأنت تتحسس جيوبك بين لحظة وأخرى، تخشى على جيوبك من أصابع سحرية مدربة، لم تتمكن منك في زحام العتبة الخضراء، فلحقت بك إلى هنا..

أصابع غريبة، تتسلل خلصة دون استئذان، وأنت تركب أتوبيس نمرة (...) الذي يقودك إلى ذلك الحي البعيد، على مشارف اللبش وتخوم الصَّيغ، الذين يعيشون في الزمن الافتراضي للفتوات/الذاكرة، كأنهم يعيشون بين دفتي رواية لنجيب محفوظ!

تجد نفسك بوسط البلد في عابدين. تتحسس الوجوه السمراء، لأبناء وبنات الجالية (عرفتك نهى على أسماء).. لكل وجه هنا قصة:

«لم أرى الخرطوم مطلقاً يا مناوة»

قالت أسماء وهي تضيف:

«اشتاق كثيراً لوطن الأجداد»

أسماء تقول إنها تشتاق للوطن، الذي خرج أبنائه منه إلى المنفى.. أنبياء تواطأ عليهم الصمت والصوت. تتحدث بحزن، عن تاريخ منفي عن الأضابير الرسمية، وظل يمضي بلا هدى، في تجاويف الفراغ والذاكرة، والحكايات الشعبية!

أسماء مثلها مثل كل أبناء الجالية؛ أعيد إنتاجها في هذا الوسط المغاير لبلادها، أصبحت غريبة دون هوية، فجذورها ليست هنا، وهويتها مختلفة عن هناك! ومع ذلك تقول للكوماندر حمدان:

«إننا نختلف عنهم في كل شيء!»

لم يكن الوطن بالنسبة لأولئك السمر المنسيين، سوى صورة باهتة لبلاد بعيدة، ضبابية الملامح، نهشتها الحرب من كل جانب، وتأكلتها

الأرضة والسوس، وهربت عنها عقولها، ونزفت مثقفها ومبدعيها حتى الثمالة.. هاجروا إلى بلاد بعيدة، بعيدة..

يتحدث معك بعضهم بحنين، إلى ماض غامض، يضرب بجذوره في أعلى النيل. يحس بانتمائه إليك وحدك، فيما يختلس النظر للمصريين بين الفينة والأخرى!

يقول الكوماندر:

«كلما حدث تقارب بين حكومتنا وساسة هذه البلاد، أشعر بأن
ثمة كارثة ستحل ببلادنا!»

«ماذا تعني كوما ندر؟!»

«أعني لابد من صياغة علاقتنا بهم على أسس جديدة؛ تضع
مصالحنا في المقام الأول، وليس العكس كما ظل يحدث دائما»

«هذا في البلاد الكبيرة الجديدة»

تقول في سخرية؛ فيرد بحدة:

«أنت محبط يا مناوة»

يطلق نواي ضحكته المجلجلة، المهمة على الصوت والصدى!

يدفعهم إحساسهم بالانتماء إلى بعضهم البعض، في غربتهم الطويلة
إلى تحسسك بحذر، مثل هذا النوبي وهو يتلمس أذان المكان و يهمس:

«البلد كلها عبارة عن سماعة تنصت كبيرة»

فتهيم في وجه أسماء، الذي يتبدى لك عن أشواق، لم ترتوي، لوجه
خلفته وراءك، تحلم برؤيته يوما، وتنتظر ذلك اليوم بصبر، لتأخذ
الوجه بين راحتيك، تغمر فيه دفئك المحموم..

تجلس في مقهى عبد الواحد، تطلب قهوة زيادة، وتسال الساعي

عن جواز سفرك، وبطاقة اللاجئين، اللذين سرقا منك هنا..

تمد حذاءك لصبي الورنيش، ينظفه دون ضمير، تنظر إليه شذرا، وأنت تناولته نصف جنيهه، فيطالب بربع جنيهه إضافي، فأنت اجنبي معظمهم يريدون استنزافك، تتقي زعيقه فتعطيه ربع الجنيه!

لديهم قناعة جازمة أن أي أجنبي هدف، يتصورون أن سرقتهم له ذكاء وفهولة وتقليب عيش ورزق (باعت هولنا ربنا) تشعر بالغثيان من زيفهم و ادعاءاتهم.. وتبتسم حين يخطر على ذهنك كيف ينظرون إليك:

«محض افركي. عبد اسود. غبي. بونقا بونقا. سمارة ومع ذلك ابن النيل وشعب واحد!»

يطل وجه خالتك التي وجدتها بعد وقت طويل؛ عندما عدت تبحث عن أي فرد من العائلة، تكون الحرب ادخرته لك. لم تسعفك الذاكرة الراهنة كثيرا، وأنت تحاول استعادة ذاكرتك الطفلة، فالمعالم احترقت والأماكن ما عادت هي الأماكن، لكن بعد بحث ممض وجدت أثرا. فتبعته إلى أن أفضى بك إلى خالة واحدة، تعرفت عليك بصعوبة..

لم يكن غيابك سهلا. ربع قرن منذ فرقتك الحرب عنهم!

يسحبك وجه خالتك بعيدا عن هذا المكان الضيق، المعطون في مأزق العقل والوجدان، الذين أعطبتهما الحرب..

تشتاق إليها يا مناوة والى أطفالها..

تشتاق الى حبيبتك البعيدة.. يتكسر طيف خالتك، في زعيق خناقة مدوية: تحطمت كراسي المقهى وتدفق الشاي والقهوة المغشوشين.. كل شيء هنا مغشوش، حتى عقائد الناس!.. وتناثرت قطع الدومينو، على البلاط.. وملأ السباب البذيء فضاء المكان..

إبتسم النووي الذي يتحسس بأذنيه المكان في وجهك، يحاول احتواء دهشتك ..

ترك مقهى عبد الواحد خلفك، تتجاوز شارع عبد الخالق ثروت إلى شارع 26 يوليو، تتوقف عند سوق التوفيقية. تشتري بعض اللحم والخضار وتصدق إلى فندق هامبورج، حيث يقيم نواي و حيث تنتظر الشلة. تدخل من الباب الموارب دون أن تطرقه، وتستقبلك ضحة عبده الخال وهو يستمع لمناوة، وهو يحكي في مشهد درامي، عن كيف أربكت أسماء، الشلة بحضورها التظاهرة. فسكروا جميعا من فتنها، كأنهم لم يتذوقوا خمرا من قبل.. خمر رغباتهم الدفينة..

عادل انتهز فرصة افترار ثغرها عن ضحكة غنوج، ففاجئها بقبلة عابرة على خدها، مسحتها بمنديلي، حاسما الرغبة ذاتها التي انتابتهم، فلم اسمح للفرصة المفاجئة، أن تسنح مرة أخرى!.. الكوماندر حمدان آخر «كبكبة» وارتابك.. حكي تاريخه كله، حتى انتابني الشك في أنه جنرال خطير، لا يعرف بسره البائع حتى البنجوس نفسه..

حدثها عن أمجاده العظيمة طبعاً، ومشاركته في ذلك الانقلاب الفاشل، اثر عودته من ميدان الحرب..

لم يكن يعلم أنها حفيدة بكباشي سابق في جيش الملك فاروق..

انقلب نواي على قفاه وهو يمسك بطنه.. و.. و.. توقفت قهقهاته عند سقف الحلق، وهو يلحظ ظلا على ستار الجدار. ابتلع ضحكاته وهو يشير لعادل.

كان الكوماندر بشحمه ولحمه يقف عند الباب الموارب، وقد انعقد حاجباه يتطاير من عينيه الشرر..

كان لا يزال ثمة أثر متبق من خمر البارحة، يلعب برؤوس بعضهم!
عندما أربكت أسماء هيبة الكوماندر؛ وأشعلت في خواطره ذكرى
يهرب منها إليها:

سلوى ممددة على السرير طريحة اليرقان. قبل توجهه إلى جبهة
الحرب.. كلاهما كان يعرف ما سيقوله الآخر! لذلك لم يتجشما عناء،
مضغ تلك الكلمات المواسية!

كانت عمته قد تركتهما وحدهما، ومضت تعد شيئاً في النار..
غاص حمدان في عيني سلوى. جذبته عميقاً، عميقاً في غوريهما،
وهي تهمس بوهن:

«لا تتردد»

«لكن أنت مريضة»

«لا تتردد ساً..»

أدنى وجهه.. ارتفعت خطوات عمته قادمة..

«أنت مريضة»

قال باقتضاب وهو يخرج مغلفاً اخضراً؛ يضعه تحت رأسها ويهم
بالوداع.. ابتسمت سلوى بوهن:

«خلي بالك من نفسك ولا تتأخر»

أكدت أمها في حزن:

«لن يتأخر وسيرجع بالسلامة»

شعور بالانقباض سيطر على سلوى، فلم تتمالك جيشان عينيها
اللتين، فاضتا بالدموع..

طوال الطريق إلى الجبهة، كان قلب حمدان يتلفت محاصرا بدموع
سلوى، ونظراتها الواهنة..

وطوال رحلة الطائرة من الخرطوم إلى القاهرة، كنت أنت يا
عادل، كجدك الذي طوى الفيافي والغفار بحثا عن شيء ما.. لعنة
تجري في دمه..

وها أنت آخر المهاجرين، تواجه قدرا عظيما يحطم المصائر
والأحلام، وترغب مثل البنجوس، أن تعود دون أذى.. لكن هيهات
فرهان الغربية خاسر، والهجرة اقسى!

لمحت في عيني راوية لأخر مرة، قبل أن يغيبها الموت، رحلة قوافل
لن تعود، قوافل عرفتها جيدا، وناحت عليها في رثاء عميق الحزن
لزمان طويل، قوافل كان آخر حدها:

«العاتي ود جانو،

راكب على البطرو،

خال تمير بلو،

عند الصغير ساسو،

العاتي قوم شدا،

بي قدا ما تشطه،

الوادي البعيد ردا،

في ساعة وتعدا،

يا الوادي الاتحول،

يا شوقي الاتحول

داير النشوق أول،

عيل قول أبوي هوّل،
العاتي يا أبو النور،
الدايرة علّ تجول،
الليلا السعات ممطور،
دايرلي فوقا مرور⁽¹⁾

تمضي كشطة الذي مضى كأجداده، دون أن يعلم أن تلك رحلته الأخيرة. والأخيرة. كان يستعد مثلك للنفي الاختياري والرحيل، مضى إلى (دوار) الشرتاي، ليقود الفرسان ضد البدو الغرباء، ليطردهم من وادي (السعات) ويحرر الوادي والنبات، وشجر الحراز الحميم فينفضك إيسار الأشياء.. بينما يسقط قتيلا يروي بدمائه أحلام الوادي..

لمزيد من الذكريات اليانعة: لعنة أجدادك - الحرب والرحيل!

بمصائر تواجهه ما لا يقوى عليه البشر، بالدلالات المعقدة لروح الوادي، التي تنطوي عليها أناشيد المزارعين الفقراء، و الرعاة الحفاة ممزقي الثياب. تقرر الرحيل كأحد الجرحى الذين قادهم شطة، فسقطوا تحت أقدام البدو الغزاة الرُّحل، ليتشكل نسيجا جديدا، يمد دورة الحياة بعد عشرات السنين، يغذي الحنين واللوعة..

تمضي وطيف راوية يلاحقك، مشاعرها العميقة المتداخلة، التي

(1) يمضي العاتي في رحلته الأخيرة على ظهر بعيره (البطرو) وشقيقته، تشده ابنتها التي كالتمر الرطب (خال تمير بالو)؛ وتوصيه إرخاء القياد، للبعير (ما تشطه) فيبعيره سريع، وسرعان ما سيصل الوادي البعيد ويقطعه. وتذكره بأنها، عندما قطعت ذلك الوادي البعيد المخيف (الاتخول/ صوت الريح) لم تتمكن من الرؤية لشدة عصف الغبار، ومع ذلك تتمنى لو ترحل معه الآن، لولا أن أبيهما يرفض، خوفا عليها، لئلا تقاسي ما قاسته من قبل، وما سيقاسيه الآن في هذه الرحلة (الدايرة علّ تجول)، ومع ذلك هي تشتاق للمسير معه في الوادي المخيف، فهي لا تأبه للصعاب، فرائحة (السعات): النبات البري العطر المبتل بالمطر، تهون عليها الإحساس بالتعب والمخاطر.

تجوس في عينها الخائيتين، في نزعها الأخير. ذات النظرة الخائية ودعك
بها طيفها في بهو المطار.

توقفت في منتصف الصالة، ترنو إلي الطيف كحنين بعيد وشجن
شجي، يثير أنشودتها في الليالي المقمرة: «العاقي ود جانو،
راكب على البطرو..» ..

وكما بحار تائه يصر على قهر العباب، تمضي لتعتصر نفسك.
هكذا إذن يعزيك طيف راوية، هكذا يودعك دون دموع.. دون أن
تقول لها كما اعتدت: «احضيني يا أمي»

فقط عينين غائرتين في محجرين، فجوة لا قرار لها، تصطرع فيهما
أصداء للوعة أزلية، أصداء، متلاشية في كون الفجوة العميقة للغياب
والفقد..

وها أنت الآن تهشم كأس العرق، التي تحدد في شفتيك بلهفة.
اندلقت هواجسك و خزعبلاتك و ما تبقى من إحساس بالذنب (سال
العرق) على الطرييزة العتيقة، فارتسم جسد سلمى وهي تتأوه في
حتف الهجر..

كان نواي قد أصر على نهى بالمجيء ظهرا، مضت الدقائق
والساعات بطيئة، وهو في انتظار متلهف مميت. حتى دهمه النعاس
اذ ظل يتشاءب إلى أن نام، فرأى:

أطياف قزحية تخرج من جسده، تتسكع في الهواء الزنخ للغرفة
الضيقة، التي تشرب فراشها بعرقه ولزوجته، وأطياف مغامرات غير
مأسوف عليها..

«ابتعد عني»

رماه بنظرة طويلة صارمة، فانكمش.. احتوى في التفاتة قصيرة،
محتويات الغرفة الصغيرة البائسة، التي علقت عليها نهى، عندما
جاءت للمرة الأولى، قبل أسبوعين (من وراء ظهر أمها سمارة) دون
أن تمكث:

«أنت بائس جدا»

«إنها القاهرة»

انسل صوته متحشرجا، كصرير الباب:

«أتيتك كصديق»

قبل أن يغفو كان قد سمع، صوت طرق على الباب، فتحه. لم يجد
شيئا. فقط قطعة سوداء كليل الشتاء.. تموء وتخرش على الخشب
مخالبتها، ثم دخلت تفسحه الطريق دون استئذان..

(أنت لا تدري حتى: لماذا شعرت بها تبسم ابتسامة مميزة)

ترددت قليلا:

«لابد أن الطرق الذي سمعته حقيقي. ليست القطة وحدها»

شعرت بخوف وقلق، و حاولت أن تتماسك وتهدي، من خاطرك المرتعش قليلا، وزعمت لنفسك انك تخيلت كل هذا. بسبب قلقك من تأخر نهى.. تفرست القطة بحواسك كلها، ثم أغلقت الباب وغفوت!..

اندلقت خلاياه كلها، وتبلل الفراش وصحي إثر إحساسه الغامض بوجود غريب. تصاعدت ضربات قلبه.. (قلت وأنت تحاول الإمساك بتلافيف شجاعتك:

ابتعد عني. ماذا تريد مني؟ أنا حتى لم أعد أشرب عند «سمارة»..
ابتسم في تشفي، لإفساده بوح غفوتك الملتهبة: ما أن بدأت تتوغل وتتقطر.. ما أن.. حتى انتزعك بقسوة.. صحوت على إحساسك بوجوده الغامض.. غالبت الإحساس بالخور.. سألته:

«ماذا تريد مني؟»

أجاب بهدوء:

«سؤال غبي»

(ثم ابتسم في سخرية وهو يمعن فيك النظر، شعرت بابتسامته.. تشبه ابتسامة مميزة.. ل.. قفزت القطة إلى تفكيرك المشتعل! القطة؟ ارتفعت دقات قلبك.. لكنه تية.. والد نهى.. انكمشت على السرير المبلل بالعرق وزنخ الحكايا..

«لا تخف إنها ابنتي»

حاولت تحريك قدمك. كنت قد تجمدت تماما. شعرت بأن ثمة لعنة ستمطر على رأسك في هذه الليلة التي تنذر باختلاط الأشياء.. بحثت عن الخال، في داخلك.. عن عادل.. عن مناوة لتتماسك بهم،

لكن لم يكن ثمّة أحد منهم إلى جوارك، فقط كوايس تغذي ذاكرتك،
وتغوص بين تلافيف وجدانك، لتصنع كل هذه الفوضى والاضطراب.. لم
تجدها.. كنت بحاجة ماسة للتصدي لها، لتتصدي له..

ارتفع تنفس الباشق الصغير بانتظام، فحملة الكوماندر من حجره، ووضعه بهدوء على السرير الواسع، وهو ينتزع من بين أصابعه الصغيرة بلطف، الصورة التي تجمعها بزوجه سلوى، التي خلفها وراءه بعد أسبوع واحد فقط، على زفافهما، متجها إلى الجبهة..
ادخل الصورة في جيب سترته، بأصابع مرتعشة. توقف بصره على الشاشة البلورية:

مشهد البيوت والجثث والأشلاء، وأنقاض المدينة المقصوفة، لم يعد العالم كله مكانا آمنا للحياة البشرية- يا لهذا الرعب! كل شيء انتزع عيناه من محجريهما!

تداخلت مشاهد القصف مع ذكرى حزينة آسية.. تحسس ساقه المعطوبة، وهو ينهض ليغير قناة الجزيرة، بحثا عن قناة محترمة!..
توقفت يده الممدودة إلى الزر! في منتصف المسافة!

المشهد ذاته: الباشق الضخم يحلق بين الطائرات التي تصر على قصفه، فيفلت ببراعة مصرا على التحليق بين وإبلها، منفلتا.. يغطي بجناحيه سماء المدينة..

اتكأوا على بنادقهم اثر غارة لم تفلح، خرج من خندقه بعد أن حل محله أحد المتطوعين.

أخرج صورة سلوى من جيب سترته العسكرية. تلمسها في عتمة الخندق، ثم احتضنها ونام..

مع خيوط الفجر الأولى فتح عينيه، وخرج ليجد الجميع، يستقبلون ضوء الشمس بحماس!

شاهد باشقا ضخما!

الباشق ذاته الذي يخلق فوق رؤوسهم كل يوم، استعداد أحدهم ليرميهِ كالعادة.. تبعه آخر مشهرا بندقيته.. تراهنوا كالعادة على إسقاطه. هتف بهم:

«لا؛ دعوه!»

نظروا ناحيته بسخرية، فهتف بإصرار، ضاع صراخه مع صوت الرصاصة، التي تفادها الباشق ببراعة كما يفعل دائما!

تلتها أخرى فثالثة. انهمر الرصاص، والباشق يصر على التحليق في مسارات معقدة، دون أن يلوذ بالفرار، بعيدا في غياهب السماء..

ظلوا يطلقون رصاصاتهم، وظل يصرخ فيهم كالمجنون، إلى أن تعالت صفارات الإنذار، فلاذوا بخنادقهم، قبل أن تقصفهم طائرات العدو، مفسحين للمضادات الأرضية للتصدي!

خرجوا من الخنادق بحذر وريبة كما اعتادوا..

لمح الباشق على مبعدة يجرجر جناحين محطمين. اقترب منه، تبعوه، أرادوا أن يجهزوا عليه فاشهر بندقيته في وجوههم، تراجعوا في دهشة، وأشار لهم القائد بأن يتركوه.

حاول حمدان أن يمد يده للباشق، فرفع الباشق رأسه في حدة، لمح في عينيه نظرة عدائية عميقة جاسرة، تحاول قهر الأم..

جاءه القائد ببعض الماء، أخذه منه ووضع أمام الباشق. أحس بيد القائد تربت على كتفه بلطف، وتدفعه بهدوء تجاه السواتر، جلسا فوق أحدها. تكلما بصمت..

كأن حادثة الباشق قد قربت بينهما، ثم أخذ القائد يسرد عليه، مهمتهم في خطة الانقلاب المؤجل، إلى حين عودتهم من مناطق

العمليات إلى الخرطوم..

عدة أيام كانت قد مرت على الباشق، وهو يرفض تناول الماء، أو أي شيء آخر.

يعاني الألم القاسي وحده، ويحاول أن يخبئه خلف نظرة باهتة العمق، والتحدي كلما اقترب منه أحد.

كان يقترب منه، يقرب الماء من مخلبه الكاسر، ويبادله نظرة آسية، ملتاعة، فائضة بالحزن والألم العميقين.. تصطدم بومض التحدي والإصرار، الذي يلمع من عينيه!

عندما عاد من الجبهة كانت سلوى في شهرها التاسع. سألته:

«أتعود مرة أخرى؟»

«ليس قبل أن تضعي الباشق الصغير»

بعد ثلاثة أيام من وفاة سلوى في الولادة، ترك الباشق الصغير.. لم يعد للجبهة. اختفى مع القائد ورفاقه، لتنفيذ الانقلاب!..

كانت ساعة الصفر قد حددت، وهو مجروح بالوفاة المفاجئة لزوجته، ومنهك ومنتهك بوحدة الباشق الصغير!..

يحمل صورة الزفاف في جيب سترته، وطيف الباشق داخله لا يفارقه أبدا. طيف سلوى والباشق الصغير يحجبان عنه الدوي، كلما تعالي القصف، وتوقف وإبل الرصاص.. يتلمس في قلبه الوليد الصغير، الذي خلفه وراءه..

كأن يتنقل بين القنوات في توتر، الى ان استوقفه فيلما أميركيا عن الحرب، قرأ في مقدمته إهداء قصيرا «إلى الذين خرجوا من ويلات الحرب أحياء»..

فشعر بنوع من الارتياح..

قال نواي فيما بعد:

«لا احد يهدي الموتى شيئاً»

وضع الكوماندر حمدان المخدة تحت رأس الباشق، ومضى بقدمه
المعطوبة نحو البلكونة، ينظر إلى السماء الطافية في بحر الهواء،
يتنفس الصعداء..

عندما قررت الرحيل يا مناوة، خشيت على خالتك الأقرب منك إليك، فكلما رأيتها ترى فيها طيف الأم القتيلة، في غارة الجيش على البلدة الصغيرة. تبتد خالتك ومنذ الوهلة الأولى عن حس مرهف، وقلب يتسع لكل العالم، خشيت عليها مرارة الفقد، كما خشيت عليك. أردتها أن تنسك، فمضيت دون أن تودعها..

هكذا تحدث الأشياء في الدنيا قسرا، دون أن يتوادم الأحاب، لا شيء تخلفه خطاك، سوى إيقاعات متباعدة لأغنية منسية:

«اصلو الوِّلف كتال..

لقيتك في طشاشي قبيلة..

وفي حر الهجيرة مقيل..

ركزت على ضراك عصاي⁽¹⁾ ..

كان قرارك بترك كل شيء ومغادرة البلاد الكبيرة.. سرکم الذي لم تبوح به لسوزي.. يجعلك في انقباض؛ وأنت تحس انك تخبئه عنها هي بالتحديد، فلمياء لم تكن معنية بقراركم، وسلمى تحاول التغلب على ذاتها دون جدوى، وروزاليندا تبدو مترددة..

كنت لا تشك في أنها تشعر بما تخبئه عنها. تحسه في ارتعاشات شفتيك.. توتر يديك.. ارتجافاتك السرية والمعلنة، أقصى تفاصيل الوعي وحدود اللاوعي..

أخفى طيف خالتك أحزانه وانسحب في بطن، إلى أعماق الفجوة التي تفصل بينكما، تجمع أشلاء اللوعة الكامنة، وبقايا الغياب الثاوي

(1) من أغنية للفنان محمد وردي.

في قاع الفجوة، وما تجمد من حنين بعيد.

تجمع كل شيء لتذكي نيران احساساتها الأزلية، في تؤدة مخيفة،
فتحاصر نفسها بطقس اليتيم الضال، إذ تمشي مشاعرها النمل على
عروقها.. يتسلل النمل أوردتها وشرابينها، و يدفعها دفعا للرحيل في
السهر والأرق المقيم، فتصحو على كفها، وهي تسحب الغطاء على
جسمك!

خرجت معها من سور المنزل القش، احتضنت وجهها كأنك
تحتضن وجه أمك، وحدقتما في القمر المتسلخ رويدا، رويدا من بين
كثافة الغابات، التي كسحابة تائهة، تمضي في عينيها بخطى ثابتة
عميقة، دون أن ترمش.

كانت تتوحد في كون الفجوة العميقة، بقلب القمر المرتحل..

«الو سمارة»

«أهلا نواي»

«أنا جائع ومفلس ولم أذق الخمر، منذ يومين»

«وكيف ستستطيع الوصول إلى؟»

وضع نواي سماعة التليفون، وتلمس ربع الجنيه القابع في جيب بنطاله، ومد يده يختطف من صديقه العابر، نصف الجنيه المتأرجح بين إصبعيه. تركه مذهولا يمزغ بقايا الطعمية، ومضى صوب ميدان رمسيس، يحك جسمه المترنح من الجوع والأكلان..

كان قد قرر منذ الأسبوع الماضي، أن لا يمضي إلى سمارة، فقد أثقل عليها كثيرا. لأكثر من عام وهي تحتمله. تقمع زوجها تيه الرهيب، عندما يحاول التعرض إليه، فيلتف تيه حول نفسه، إلى أن تتحول زمجرته المجهضة، إلى تذمر يائس وحزين!

كان نواي يدرك، أن تيه ينتظر فرصة فقط «لينتف» ريشه ويرى فيه، يوما قمطيرا، فحرص على عدم إتاحة هذه الفرصة له. وتجنبه ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

ومنذ أحس نواي بنهى ابنة سمارة وتيه؛ الفتاة عارمة الأنوثة، تلاحقه بشبق، حتى بدا يقلل المجيء إلى بيت سمارة..

لم يكن يرغب في الحصول على أي نوع من المتاعب، إذ كان لديه ما يكفيه..

كانت نهى تحرص على أن تفتح له الباب بنفسها، وهي تهتف

بغنج:

«تفضل يا أستاذ. ليك مدة ما بنت؟!»

«ظروف والله »

ثم تجلسه بلطف وتتعمد ملامسته بجسمها المجنون؛ العاجزة عن السيطرة عليه، تفجر نزواته الكامنة، تتركه لسامرة مرتعشا، لا يكاد يسمع كلمات الترحيب! يأخذ زجاجة عرق السكر! يتجرعها دون كأس عليها تحرق صبوات جسده المشتعل..

أول مرة تعرف فيها نواي على سمارة، كان ذلك من خلال عبده الخال.. قبل وقت طويل مضى..

«أنت متأكد انو عرقها مضبوط؟»

«ذي تأكدي.. من مشيتك دي معاي»

وما أن تجرع نواي الكأس الرابع، حتى بدأ يشعر بالانتعاش والاسترخاء يسري في عروقه كلها منذها أصبح زبونا دائما لسامارة.

تردده المستمر على بيتها جعل بينهما ألفة، ونوع من التواصل الوجداني الحميم. فطلبت منه مراجعة المحاضرات لنهى..

كانت سمارة منجذبة نحوه بشعور لا يقاوم. شعور غامض لا تدري كنهه. وكان هو مسكونا بالشرب، لينسى كل شيء!

فيشرب ويمضي محموما، يتسكع في شوارع المدينة، التي قهرت المعزز، بينما نهى تنهب الطريق إليه، بسرعة البرق فتضيق الهوة بينهما، كلما ابتعد. أو حاول اللوذ بالفرار..

كحمى استوائية أصيلة. كانت نهى تستعيد في دواخله، ذكريات بعيدة لأشبه حبيبات، تلاشين على شاطئ النيل أو خرابات المدينة النائبة (امبدة)!

وكلما اقترب ينتصب تيّه بجسمه العملاق؛ مثيرا في نفسه الرعب
والفزع. فيكرع نواي زجاجته بعجلة؛ ويلوذ بالفرار كلا جيء عتيء؛
خبر زفاقات الغربة وممراتها الظلاية..

في الأوقات التي تضيق به فيها الأحوال، لدرجة ألا يجد من
يستدين منه، فحتى الأصدقاء أفراد الشلة يكونون في غاية الفلس، في
مثل تلك الأوقات، يمضي إليها فتعطيه حاجته وأكثر بلا من ولا أذى.
بمجرد ما الأمور تتصلح، حاديك قروشك كلها يا سمارة..

«وانت حتسافر متين؟»

«لسة شوية.. ذي حالتكم مع الأستراليين»

«أنحنا ما باقي لينا غير وصول الفيذا»

«عرفت انو ميرى سافرت فنلندا خلاص»

«ايوة. ما أخروها كثير. إجراءتها انتهت بسرعة» «عشان أسرتها
كبيرة»

تننفض أشجانه، ويتعمق داخله جرح دام. يتجرع كوب العرق
دفعة واحدة، وينفث البخار بصفير متقطع، ترتخي أعصابه، و يتعالى
التهاف الحزين في بلاد بعيدة.. عن بلاد أبعد..

عاد الكوماندر إلى الشلة المجتمعة في الصالون، يحاول استرداد نفسه من فتنة الفتاة الفاتنة، التي أربكت الجميع. وقلبه يرتعش كفرخ طائر مبلبل بمياه المطر!

همس في أذن عادل وهو يصب له كأسا طويلا؛ من العرق اللاسع، مشيرا إلى الفتاة التي أتت برفقة مناوة:

«أتى بها ليكمل بهجته»

«رأيك شنو؟!»

«إنها تتصرف كسييدة مجتمع! انظر كيف تخلف رجل على رجل»

«احترس فهي قنبلة موقوتة!»

مد الكوماندر كأسا قصيرة للفتاة..

«شكرا لا اشرب سوى البيرة»

أصر عليها وألح الآخرون. مزجت العرق بالمياه الغازية؛ وتجرعته في تأفف، وهي تمسح وجوههم بنظرة عميقة لا قرار لها. وما أن نهض مناوة لإعداد العشاء، حتى همس الكوماندر في أذنها:

«تليفونك»

التفتت أسماء في دهشة، إلى حيث غاب مناوة، وأملته الرقم ببطء شديد، تلمظ شفثيه واخذ يداري الغزل الذي جفف حلقه.

ابتلع كلماته التي اجتهد أن تكون لائقة، خالية من لغة الميدان والمدن المستردة وجبهة الحرب. وضع عادل، يساعده الآخرون الصحون الممتلئة. تجرع كأسه الأخيرة ونهض وهو ينظر إليها.

عندما خرجا وانطلقت بهما العربة، في نفق صلاح سالم، همست
في أذنه تستثيره:

«صديقك الكوماندر اخذ رقم تليفوني»

«هنيئا له»

«أتعرف بما ذا كان يهمس لي؟»

«اجزم انه حدثك عن غرفة النوم، وابنه الصغير الباشق»

احتواها بعينيه، ابتسمت.. مد رأسه المرتخي فسقط، على صدرها
و.. ونام..

ها أنت تتأوه يا كوماندر. تشعر بأنك تسمع صوتها.. تحسه داخلك بوضوح: دفقا من الأنس، كذاك الذي يتسربك وانت تتحسسها..

جئت إلى هنا هاربا من ذكرياتك المنهارة، بعد أن فقدت في الانقلاب الفاشل قائدك، واثنين من رفاقك. هربت إلى هناك، إلى أسمرأ قبل أن تجيء إلى هنا.

هربت إلى حيث تجمع المنفيون والغرباء، والحالمين بوطن آخر، يخرج من قلب المعسكرات المحاصرة بالكاميرات السرية، والمخبأة بين الأكمات والجبال، وأعلى السهول الخصيبة وتخوم الجوار المسورة. بالسلك الشائك المكهرب، والمجرى الطولي العميق، على امتداد الحدود! تطاردك ذكرى الرفاق الذين أعدموا، فتجتاح وحدات جيش الحكومة في مدن الشرق، تسقط المدن، وتنسحب مخلفا وراءك الجرحى وتعود بعشرات الأسرى..

ضمدت الحرب جراحات هزيمتك الفادحة، فاندرجت في المدن النساء. تغزوهن في إجازاتك القصيرة. التي تغادر فيها اسمرا إلى القاهرة، فللمصرية مذاق خاص، يفوق مذاق فتيات اسمرا الجميلات! كنت في كل ليلة من ليال اسمرا البديعة، تحرص على أن تنام فيها على أحضانك أنثى بديعة، لا تعرف لغتها ولا رائحتها المثيرة، التي تضوع ليالي اسمرا، الموغلة في تباريح الغربة وبوح المنفيين! تتذكر أمك المريضة، وشقيقاتك المراهقات، وأشقاءك العاطلين، وسلوى الجرح العذاب..

ظننت انك ستنسى عالمك المنهار، لكنه يخرج في مثل تلك اللحظات بالذات، من تلافيف ذاكرتك. ينهض أمامك ليعذبك بحضوره القوي.

سلوى العذاب، رحلت دون وداع، مخلفة وراءها وجهها المنقوش على القلب.. تتقطب ملامحه، تكشر تقاسيمه!.. فيبتسم ويطيف الباشق الصغير. يطل مخترقا الحجب والمسافات..

مضت السنوات تجرجر خلفها أذيال خيبتك. عاما بعد عام. مضت السنوات دون أن تمتلئ حياتك، بشيء ينسيك ما تهرب منه..

وبعيدا بعيدا خلف نافذة للمواجد والأوجاع تحلق، فيعلق القائد على اجازاتك المتكررة، وصحبتك الدائمة لتلك الأمهرية المريية، التي ربما على صلة بـ مخابرات الحكومة أو أسمرا أو استخبارات المعارضة المسلحة، إلى آخر ما يشاع في هذا الفضاء المتشعب الضيق، المتخم برائحة الخيانة والغدر..

فتثور بوجه قائدك وتهرب، مجتازا الأسلاك الشائكة، القناصة، السهول الجبال، تصل منهكا، مرهقا وموجوعا..

أقصى تفاصيل الذكريات المريية. تلتقط أنفاسك وتستعيد سلوى السيسبان، تغنيها مخمورا:

«البرتكان نهديك مدردم ..»..

وتحتضن الباشق الصغير في حرك، وتبكي بصوت النساء..

تتجشأ في كل مرة حواسك، وتبكي معانقا الطيوف التي تحتضنه وتربت عليه..

كان مناوأة لا يزال يحكي، عن دهشة الشلة بفتنة أسماء، عندما ألقى الحضور المفاجئ للكوماندر، ظللا مشحونة تنذر بانفجار وشيك..

اشرع الكوماندر الباب على مصراعيه، وشيئا فشيئا انفك انعقاد حاجبيه، وحل محل الشرر في عينيه، شعور عميق بالسخرية!
دفع الباشق أمامه، وقطع الصمت مفسحا الطريق لأسماء التي كانت قد انزوت خلف الباب، ممسكة بيد الصبي الصغير..
وضع يده على كتفها، وهو يوجه الحديث للشلة:

«جئنا نخبركم؛ فأنا وأسماء بطريقنا، لقضاء شهر العسل، في الغردقة.. تزوجنا!»

قال عادل الذي تملكته الدهشة:

«ماذا؟!.. اقصد مبروك»

«إنها أم الباشق الآن، الباشق بحاجة لأم؛ وأنا بحاجة للاستقرار.. هل هناك أي (ملاحظ)؟!»

كان فكا كل فرد من أفراد الشلة، قد تدلى في بلاهة وهما يستطيعان على وقع الخطى المبتعدة، للكوماندر حمدان وابنه وأسماء..

هذا الولد الممصوح لم يروقه أبدا.. بعينيه الزائغتين؛ اللتين تتجولان خلسة؛ في أنحاء الشقة.. جسم نهى الذي يتفجر لدى حضوره، ويبدو غير الجسد الذي يألّفه في غيابه.. خريطة جسم سمارة.. قلت لها مرارا وتكرارا:

«أنا أكره هذا الولد»

«انه ليس ولدا يا تيه احترم نفسك!»

«ماذا تريد من منه يا سمارة. يجب ان اضربه!»

«ستندم على ذلك. ثم لماذا تكرهه إلى هذا الحد؟»

انسحب تيه إلى داخله على مضض. انه يعرف سمارة جيدا: امرأة قاسية القلب؛ و تعني ما تقول؛ وتستطيع فعل كل شيء. فكثيرا ما نكلت به. إنها امرأة تعرف من أين تؤكل الكتف!..

عندما رأت نهى نواي في تلك المرة الأولى؛ التي جاء فيها مع صديقه الخال، لفت نظرها بوجهه الناحل وتوحده القاتل، خلافا لرواد البيت الآخرين، الذين لا يأتون باستمرار.. كان يجيء دائما.. ودايما متوحد وحزين.. لكن متوهج العينين، كأن عينيه تخزان طاقته كلها.. قالت لأمها:

«انه غريب جدا!»

«ككل اللاجئين والمهاجرين»

رمته بابتسامتها.. التقطها.. حاولت..

كانت تشعر بسعادة غامرة، عندما تدفعه للكلام، فيستجيب،

وغالبا يبدو كطفل غرير.. كانت تدرك، انه ينظر إليها كابنة لسامرة فحسب، لا أكثر. دون مشاعر خاصة.. وكان يدرك أن ذئاب القاهرة، لم تتمكن من أن تنالها بعد. مع الوجود المرعب لتيه، فيشعر بارتياح عميق، واقتراب أعمق..

لمحت فيه سمارة طيفا بعيدا، تنأى بألسن اللهب في قريتها المحترقة، كان بعينه بريقا مميذا، كبريق عيني توتو..

في الليلة التي سبقت هجوم الجيش، على قريتها قالت لتوتو، وهي تفلت من بين ذراعيه:

«بذرتنا توشك على الخروج»

لم يتركها تكمل، قاطعها بحسم:

«يجب أن نهرب من هنا؛ فقد اشتد الحصار»

«لا أستطيع ترك أهلي. يواجهون مأساة الحرب وحدهم»

ولم يلبثا سوى ساعات حتى هجمت عند مشارف الفجر، مليشيا تابعة لجيش أبو لكيك الجنجويدي..

أحرقت كل شيء وهي تهلل وتكبر، وامسك اللهب بتوتو. وهو يحاول إنقاذ طفلة صغيرة. فانهار عليهما كوخ القش والقصب المشتعل، وهما على أعتاب مخرجه، وابتلعتهما دائرة النار، متوحدين كآلهة مقدسة. كأنبياء سرمديين. تلاشيا في أسنة اللهب!

في مسام الهواء المتسلخ. مضيا إلى اللانهاية: توتو والطفلة الصغيرة..

عينا نواي هما عينا توتو ذاتهما! في تلك اللحظة التي انتصب فيها، يحمل الطفلة ويمتص بعينه اللهب المتعاطم..

أعاد نواي إلى ذاكرتها، وجوه الأحبة، والذكريات الثاوية في البوح. وعرق السكر يحشرج في الحلق، ويتسبب في الرثة، فتفوح ابخرته

شجنا عميقا، في قصيدة خلوية، تشعل الحنين والأسى والاغتراب. رمق نواي تيّه بنظرة مرتعشة.

لم ترق له فكرة أن يراق دمه، على يد هذا المجنون، وحاول النهوض من مكانه، يعالج فكرة ما فرضت نفسها عليه..

نجح في النهوض.. تذكر أن نهى لم تف بوعداها، فتماسك أكثر..

تقدم من باب الغرفة الموارب، وأطل برأسه على الشارع، شق سكون الليل عواء ملتاع لكلبة متعسرة، يبدو أنها تعاني المخاض. لفح البرد الرطب وجهه، ولفته عتمة الحارة الراقدة في سكون.

أوعزت له نفسه، أن يطلق ساقيه للريح! فشعر بنظرات تيّه، تلمح ظهره باللهب، وتسحبه إلى داخل الغرفة!

بصوت واهن، سأله مرة أخرى:

«ماذا تريد مني؟!»

«ابنتي، أنا قرين توتو، أبيها، هل تعجبك؟!»

تهدل فكا نواي.. تذكر القطة التي خربشت على الباب قبل أن يغفوا!.. كانت ناعمة كمنديل نهى الحريري، ثم انقشعت، فأفاق. ليجد تيّه أمامه!.. أفاق على صوت طرق على الباب.. كان متعرقا. يسيطر عليه إحساس باللزوجة.. نهض!

دخلت نهى. منسربة في خفة:

أسفة تأخرت عليك.. سمارة وتيّه حاصراني.. خرجت بأعجوبة..

ما كان يجب أن تأتي، فقد أطفأت قرينتك كل شيء..

لم تنتبه إلى قوله، أرادت تهدئته وتسكين غضبه.. دنت منه..

فحسمها بلطف:

«يجب أن تعودى إلى منزلك الآن»

توقفت تحدى فى وجهه بذهول؛ ثم أفلتت ساخطة..

عادت الغرفة خالية كما كانت. تذكر تيه. لم يكن ثمة وجود له. لا.. ارتفع مواء القطه وهى تخربش الباب.. تذكر أنها أفسحته الطريق قبل أن يغفو مستئسًا، من مجيء نهى. طرد القطه بحذر وأغلق وراءها الباب بإحكام. قلب الفراش على وجهه الآخر، وحاول تهدئة وجيب قلبه المنتفض..

استلقى على الفراش لتلتهمه البلاد الكبيرة، واتنى بطيوف تتباعد وتقرب..

البلاد الكبيرة بمجهوليها، الذين جاءوا من كل مكان، يحملون
حرمانهم وأحزانهم وهزائمهم.. يحملون احباطا تهم وخذلاناتهم
العميقة.. من أين جاء كل هؤلاء؟!

فالبلاد الكبيرة ليست وطنا لأحد؛ ومع ذلك أصبحت وطنا
للجميع؛ ككل أراضي الهجرات.. لكن.. من أين جاء كل هؤلاء وأولئك:
كان ذاك هو السؤال الجوهرى، الذي شغل بال البنجوس من قبل،
وأصبح جزء من العالم المنهار لعبده الخال وأصدقاءه.. فمن أين أتى
هؤلاء إلى أتني؟!

ليست أتني الأساطير، والحكايات الخرافية. التي فاضت بالشعراء
الجوالة، المرتحلين بخيالهم عبر البحار العظيمة، يواجهون غضب
الطبيعة وأهوال الوحوش الخرافية، الذين لا يفتأون يعودون منهكين
ليتكأون على صدرها، ينقضون بعذاباتهم، فينهار القصر الجمهورى
والقيادة العامة، والبرلمان ومسجد النيلين، ويلوذ أبو لكيلك بالفرار،
فلا يجد من يأويه!

تنهار قصور السياسيين المرتزقة؛ والحانات السرية، والسفارات
المشبوهة، وتنهض الزقاقات والحواري، في مزيج الغربة والحنين
الأزليين، اللذين شكلا البلاد الكبيرة، حيناً من الدهر..

إنها أتني الناهضة في قلب السوق الإفرنجي، بالخرطوم تستمرأ
التمدد في وهم مخملي سحيق، شيدته كلية غردون التذكارية،
فغاب فيه الأفندية، المتعلمين الجدد. تصوروا أنهم امتدادا لنبل
الإمبراطورية، التي لا تغيب عنها الشمس، فغابوا بعيدا، بعيدا.. عن
الناس والأشياء والأماكن. في جغرافيا البلاد الكبيرة، الواسعة كالجراحات

الغائرة، في عيون العوانس والأرامل والمسحوقين..

من كلية غردون كان الافندية يأتون إلى أتنى، محملين بعنجهيتهم،
معبأين بتعاليتهم وعجرفتهم، زاهين في ثيابهم الأنيقة ومشياتهم الأكثر
تأنقا، وأحذيتهم اللامعة. تدق على البلاط بتأفف..

إلى جامعة الخرطوم يعودون، يتسولون البعثات، المقتطعة من
أفئدة الفقراء وعرقهم الغزير، يدرسون على نفقة جراحاتهم الغائرة،
ويتغورون عميقا كالدمامل. في أحضان النساء البيض. يقذفون بأنانيتهم
وقبحهم. ثم لا يعودون أبدا..

ومن يعودون. يهزون ذيلهم كالكلاب. باحثين عن أسياذ أقوياء.
بين أروقة السياسة والوزارة. لتدخل البلاد الكبيرة. في كهفها السحري
خلف جبل نامي، تنطوي على ظلماتها.. مأزقها الوجودي الشامل..
انطوائها على الهزيمة والضياع..

إلى أتنى تجيء بهم أنخاب البيرة والشيري، ينفقون بسخاء
(بيرسري) الجامعة ويحتسون النساء؛ احتساء مؤلما..

هؤلاء الافندية يمشون إلى حيث جاءوا، وترحل أنت تاركا كل شيء
خلفك، دون أدنى إحساس بالعار..

جلست روز إلى جوار عبده الخال؛ أمام جهاز الكمبيوتر في الشقة الصغيرة، التي تحتلها منظمة التنمية السودانية كمقر مؤقت لها، ريثما تهدأ الأوضاع في البلاد الكبيرة فتنقل.

كانت روز محاصرة بالغربة والحنين، وهي تجوس في عوامله، التي الفتها بمنافيتها وحنينها الغامض، ككل الذين هربوا من البلاد الكبيرة، فجاءوا ويتوجعون. ويغمدون جراحاتهم أقصى تفاصيل النفي.

يمضي الواحد منهم. بإحساس محارب منقرض، لا شيء يربطه بالماضي. سوى صور متداخلة من الذكريات والأخيلة..

قالت روز وهي تسترد بصرها من وجه الخال المتعب:

«كلنا كان يحاول أن يحمي روحه من الدمار، لم يكن ثمة خيار سوى الهروب»

نعم كانوا يحاولون الابتعاد عن الموت، بإصرار، بذات سرعة اقترابه منهم، وفي الخط الفاصل بين عاملين، كانوا يهربون منطوين على نبوة المأساة! يحاولون التحرر من قبضة البنجوس، التي صادرت حتى أحلامهم!..

«تنهض هنا مساحة ملأى بالتساؤلات الحارقة!»

قالت روز. فعض الخال على شفثيه:

«نعم التساؤلات الحارقة، التي يحملها التاريخ السحيق لشعب الوادي، الذي يتكون في التمزق الشامل للناس والحياة.. والوادي، بناسه وطبيعته واحساساته الغامضة، الوادي الشاهد على اندثار أجيال.. ومولد أخرى بأفكارها المتباينة، وتطلعاتها المتجددة: عن

الحياة والناس والوجود. والمصير والهدف..

حياة الوادي المتبدلة بناسها، كانت هي حياتهم هم أنفسهم، كأصدقاء يلتقون عند عبده الخال و ينفضون، يحاولون الهرب الجماعي، من طعم الهزيمة المر..

كانوا يخونون جرحهم بوعي تام..

ربما هو اللوذ باليانكي، أوقعهم في الشرك.. اليانكي الغرباء، الذين قدموا رغم انف رائحة التراب، وعبق التاريخ. ورغم أنف العالم المقهور كله..

جاءوا حماة للسلام كما يزعمون، وعرابين للتنمية..

جاءوا كما جاء أجدادهم من قبل، يدعون إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فخاص الناس في الظلمات أكثر فأكثر..

لم يرفض شعب الوادي والجبال اليانكي، كما فعل الأسلاف منذ وقت بعيد. لم يرفضوهم، على الرغم من أنهم كانوا يدركون، أن اليانكي سيأخذون ثمننا غاليا من وجدان الناس وثروات الجبال الغنية، واحساسات الأرض، وغاباتها..

أنه النفط والذهب والماء. الحرب القادمة.. النبات..

الزراعة..

هذا القبول باليانكي ينطوي على أسئلة محرجة، حول العلاقة بين الناس والسلطة الوطنية. منذ غادر الإنجليز. حتى لحظة تدخل اليانكي. لإنهاء الحروب الأهلية في الجنوب والشرق والغرب وجبال النوبة..

ففي كل موقع من هذه المواقع، يتكرر موقف واحد: لم يرفض أحد اليانكي، بل سمحوا لهم باقتلاعهم من الجذور بعد أن اشتغلت

رمزية الغريب الحكيم: الذي يملأ الأرض عدلا بعدما ملئت جورا..
يتسلل صوت البنجوس فضاء الشقة الصغيرة، ويلمع وجهه على
شاشة الكمبيوتر، أمام روز والخال:

«إذن تعتقد أن قبول الناس باليانكي. له دلالاته العميقة في سؤال
السلطة الوطنية؟»

«كذلك هو تعبير عن الاستجابة لضغوط العولمة»

تدخلت روز:

«اليانكي ليسوا سيئين. أختي تعيشان في الغرب، كمواطنتين تتمتعان
بكل الحقوق. بينما نحن لا نحتمل الاعتراف بالمواطنة لبعضنا البعض»

تكسرت عبارة روز في وجوههم.. اختلجت شاشة الكمبيوتر، تحاول
استعادة وجه البنجوس من شظايا فيروس طاريء. تجمعت تشظياتهم
في الصمت، لترسم أسئلة محرجة، اخترقها صوت البنجوس يقلب في
صفحات «النت» فيتوقف عند تقرير دولي حول الحرب في دارفور:

«too many people killed for no reason

كان الوقت متأخرا، وبرد يناير يتوغل في المفصل أكثر، فأكثر، وقهوة
عبد الواحد تستحيل إلى مجرد ذكرى قديمة..

«أخيرا! بعد طول انتظار»

قالت روز وهي تشرع باب الشقة أمامه:

«كان ذاك لقاءنا الأخير بهذه المدينة، فقد لا نجتمع مرة أخرى، في
منافينا الجديدة»

«إذن ولت أيام الرعب والمخاوف والظنون»

«نتمنى ذلك»

مضت إذن تلك الأيام، والآن بطريقهم إلى بلاد أخرى، ربما يكون
فيها متكأ لما خلفته البلاد الكبيرة و القاهرة من أحزان.

انتهت رواية (تجاعيد ذاكرة البنجوس)

الجزء الثالث من رواية :

لا وطن في الحنين

أحمد ضحية

وادي صالح -كوستي- ام درمان - القاهرة

1998 - 2006